خالد محمد خالد

كما تحدث القرآن

فبراير ١٩٦٢

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية : بعابدين

خالد محمد خالد

كما تحدث القرآن

فبراير ١٩٦٢

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين

فى هذا الكتاب

« بسم الله الرحمن الرحيم »

مقدمة

حول مائدة القرآن ، نَلْتقى اليوم ضُيوفاً مُبارَكين . .

هذا الكتاب الذى وَفَدَ على الدنيا منذ ألف وأربعمائة عام ، والذى أَلْقاه « رُوحُ القُدُس » على قلب الرسول محمد ﷺ ليكون من المُنذرين ، « بلسانٍ عربى مبين » .

ولقد اختلف ناس كثيرون حول هذا القرآن الكريم ، منذ اللحظة الأولى لمجيئه..

وحَتَّى اليوم ، لا يزالون يختلفون . .

بَيْدَ أن الحقيقة التى لم يختلف فيها أحد ، ولم يجحدها جاحد ومعه عقله ، هى تلك المعجزات العظمى التى حققها القرآن بما شاد مِن عالَم . . وبما رَفَع من قِيَم . . وبما أضاف إلى الحضارة الإنسانية من أرصدة لا تَفْنى عن طريق الدنيا المسلمة التى أيقظها ، وجمع شَمْثَها ، وأخرج خَبْئَها النفيس ، وجمعها تحت رايته وإيمانه . . ! !

* * *

فالإسلام بكل فتُوحاته العقلية ، والروحية ، والحضارية لا يُذكر ، إلا ويُذكر — قبلاً — هذا القرآن الذى كان مَعقد العزم ، ومَوطن السِّر ، ومُجاعُ الطَّاقة .

هذا الكتاب الذى لم يُخلِفْ مَوْعده ، مع القلَّة المؤمنة التى كانت ذات يوم بعيد تستخفى بإيمانها ، وتهرب بحياتها من الشرِّ المُتربِّص بها فى طُرقات مكة ومُنحنياتها .

لقد وَعدها القرآن — يومئذ — أحلاماً ، تذهَلُ من فَرْطِ خَيالِها الأحلام . . !!

لكن لم تكد الأيام تمضى حتى صار الحُلمُ حقيقة . . . والخيال وثيقة . . وإذا العقيدة المستخفية المُرتجفة تأخذ مكانها فوق الشمس . . وإذا الدنيا تدور فى فَلَكها . . وإذا بها تُنجب الدُّعاةَ الرَّبّانيين ، والحكَّام العادلين ، والعباقرة ، والفلاسفة ، والعُلماء . . ويتفيَّأ الناس ظِلالها أفواجاً وزُمَراً . . وتُردِّدُ ملايين الألسنة ، فى عشرات الأقطار . . آياتِ ذلك القرآن العجَب ، والكتاب المبين . . !

* * *

وهذه الصفحاتُ التى تُطالعها تحت عنوان « كما تحدث القرآن » لا تزعُم لنفسها أنها تُقدِّم القرآن ، أو تُفسِّرُه ، أو تنتظم بحثاً عنه . .

إنها تُلقى السمع ، لا أكثر . . وتُرسلُ البصرَ وراء مَوكِبٍ من آياته الباهرات .

إننا نقرأ الآية من القرآن ، فلا تلبث حتى تذكّرنا بآية أخرى مُماثِلَةٍ لها . . ثم تُنادِى الآيةُ الثانيةُ إلى خواطرنا ، آياتٍ أُخرى كثيرات . . وإذا نحن آخر الأمر أمام قضية كاملة ، كوّنت الآيات المبثوثةُ هنا وهناك ، كُلَّ عناصِرها ، وقالت فيها قولاً بليغا . . ! !

ولقد أغرانى هذا ، بأن أتتبَّعَ بعض الآيات البينات على هذا النَّسَق .

• فإذا آياتٌ ، القرآن يتحدّث خلالها عن نفسه ، ويطرح بنفسه كل مايدور حوله من أسئلة الشك واليقين .

وكانت هذه ــ الفصل الأول من كتابنا هذا . .

• ونادتنى آيات أُخرى ، وجدتُها فى النهاية تُنحِّى القوة

عن طريق الحق ، وتضع المنطق ، والحجة ، والإقناع ، مكان التسلُّط ، والإكراه .

وكانت هذه ـ الفصل الثانى من الكتاب .

• وسرت وراء مجموعة ثالثة من الآيات . . فإذا أنا أمام كل حقوق « المُواطن العادى » يرسم القرآن فى بهاء عظيم كلَّ مبادئها الأساسية ، ويرفع بها راية البعث للجماهير الكادحة ، وللناس البُسطاء ، الوُدعاء . .

وكانت هذه ـ الفصل الثالث من الكتاب .

• ثم بَصُرْتُ بآيات ، تتبع القرآن بهـا مآسى الناس وكُرُباتهم ، وحاجاتهم ، وشكاواهم . . تَتَبَّعها فى حَنان واهتمام ويقظة ، فبهرتنى الطريقة التى يتلقَّى ويُعالج بها تلك المشكلات .

وكانت هذه الآيات ـ الفصل الرابع من الكتاب .

• ثم ألقيتُ السَّمْع ، وهو شهيد ، والبصَرَ ، وهو مُنْبهرٌ وحَديد إلى آيات ، سمعتها تَعزف لَحْنا عجبا ، لَحن « وَحْدَةِ الدين » .

الدين واحد ، منذ أول داع إلى الله : حتى محمد خاتَم الأنبياء والمُرسلين . .

وكانت هذه ـ الفصل الخامس من الكتاب .

• ثم دعانى المشهد الحافل ، حيث الأرض هناك غاصة بالأصنام المهشّمة ، والأوثان المحطّمة ، والأرباب الكاذبة المخلوعة ، والخرافات المشْخَنَة .

وأدركتُ من فورى أنى أمام الأرض التى دارت عليها أعظم معارك القرآن . . معركة « التوحيد » .

• وعلى صَفْح الآيات التى تُعلن وُجود الله ووحدانيّته ، كان الفصل السادس لهذا الكتاب .

* * *

عَبْر هذه الرحلة القصيرة الممتعة ، لم احاول أن أخْلعَ على الآيات معنى أريده .. ولم أكَلِّفها غايات لاتريدها .. بل تركتُها تقودُنى وحدها إلى غاياتها الباسلة الجليلة ، فإذا أنا أمام فتح عظيم مُبين ، أتمّه القرآن لحساب الإنسان . لحساب عقله ، وكرامته ، وضميره . .

ولقد يأْذَن الله ذو الفضل العظيم ، فنعود إلى مُتابعة هذه

الرحلة التى يتحدث القرآن خلالها ، ونُصغى نحن إلى هذا الحديث .

* * *

ولقد أوحَى إلىّ انبثَاثُ الآيات وتفرُّقها فى كثير من السُّوَرَ ، بينما هى حين تتجمّع فى مكان واحد ، أو سورة واحدة تُـكوِّن قضايا مكتملة العناصر والسِّمات . . أقول أثارَتْ هذه الظاهرة فى نفسى ، هذا السؤال . .

— لماذا لَمْ يُرتِّب القرآن نفسَه تَرتيباً موضوعياً ؟؟

فيجمع فى سورة النساء مثلا — كل آياته التى تعرض قضية المرأة وحقوقها . .

ويجمع فى سورة « الشُّورَى » كل ما قاله عنها . .

ويجمع فى سورة الأنبياء ، كل ما يريد أن يقوله عنهم . . وهكذا . . .

ولم أبحث عن الجواب طويلا — فسرعان ما أدركت فى ضوء القرآن نفسه — أن القرآن لم يُرتِّب نفسه ترتيباً موضوعياً لسبب يسير ، هو أنه ليس كتاباً مُؤَلَّفاً . .

أجَلْ . . فلو كان القرآن كتاباً مُؤَلَّفاً ، لانتهج ذلك

النّهج الذى لم يكن يؤُودُهُ ، أو يُعجزه .

ولكن القرآن هُتاف بآيات الحق والهدى ، يُعطى المناسبةَ حقها فى كل حين .

ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام مُؤَلفاً للقرآن ، لعمد ولَو فى آخر عهده بالدنيا إلى ترتيب القرآن وَفق المادة والموضوع .

ولكن الرسول لم يكن يُؤَلّف القرآن ، إنما كان يتلقّاه ..

وفى أسْمَى حالات التّفتُّح الروحى ، كانت الآيات البيِّنات تَهطل كالغيث ، بالهُدى ودِينِ الحق ، نافِضَةً عن الضمير الإنسانى غُبار الجهل ، وعِبْء الخرافة ، وطأة والرُّضوخ .

كانت ، ولا تَزال تَهدى لِلّتى هى أقْوَمُ غاية .. وأهدَى سبيلا .. ؟

خالد محمد خالد

تِلْكَ آياتُ الكِتَابْ ..

مائتان وثلاثون آية، أو تزيد ، تحدث القرآن فيها عن نفسه وطرح خِلالها كل الأسئلة التى تتعلّق به ، وأجاب عنها

ما هو ..؟

من أين جاء ..؟

ولماذا جاء ..؟

هل هو سحر ؟ هل هو شعر ؟ هل هو إفكٌ مُفترى ؟ هل هو أساطِيرُ الأولين . ؟؟

هل هو نقض لما سبقه ، أم هو مُصدِّقُ الذى بين يَدَيْه من الكِتاب ؟

ولماذا لم يأت جملة واحدة .

وهل جاء لقريش وحدها ..؟ أم هو ذِكْرٌ للعالَمين . . ؟

وما موقفه من الذين ارْتابوا فيه ، والذين خاصموه وولّوْا عنه مُدْبِرين ..؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تِباعا ، وأجاب عنهـا

فى وضوح . . كما جلّى بها حقيقته ، وحكى بها قصته .

* * *

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات .

« . . . ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه ، هُدًى للمتقين

« الذين يؤمنون بالغيب . ويقيمون الصلاة ، ومما

« رزقناهم ينفقون

« والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك

« وبالآخرة هم يوقنون

« أولئك على هُدًى من ربهم . وأولئك هم المفلحون »

سورة : البقرة

هذا هو القرآن ، وهذه هى أُسْرَتُه . .

أما هو — فـ « كتابٌ لا ريب فيه هُدًى للمتقين »

وأما أُسْرَته ، فهم « الذين يؤمنون بما أُنزل إليك ، وما أُنزل من قبلك »

وإنها لَبدايةٌ سعيدة وباهرة ، يُنحِّى القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية ، والعنصرية ، والطائفية .

فجميع الذين لهم إيمان بالله ، وبالحق ، وبالغيب — القرآن كتابُهم . .

وهو إذن لم يأت لينقض ماسبقه ، بل جاء يُكمِّل ويُتمِّم والذين يؤمنون به ، يؤمنون حتماً وضمناً بكل ما سبقه من كتاب .

أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لاغير ، فأولئك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

« نزّل عليك الكتابَ بالحق ، مُصدِّقا لما بين يديه ،

« وأنزل التوراة والإنجيل من قبلُ هُدًى للناس ،

« وأنزل الفُرقان » سورة: آل عمران

وإذا كانت التوراة والإنجيل — الكتابان اللذان يتحدث عنهما القرآن ، لم يكونا فِرْيةً ولا ضلالا — إنما كانا رحمة للناس وهُدى ، فكذلك القرآن الذى جاء يتمم رسالة الكتب السابقة والصادقة .

« وما كان هـذا القرآنُ أن يُفترى مِن دُون الله ، ولكنْ » تصديقَ الذى بين يديه ، وتفصيلَ

« الـكتابِ لا ريب فيه من رب العالمين »
سورة: يونس

وهذه ـ لدَى القرآن ـ حقيقة لا ينبغى أن تغيب عن المؤمنين بالـكتب السابقة إذا كانوا لا يبخسون إيمانهم ، ولا يُحرِّفون الحقيقة أو ينكرونها .

« والذين آتيناهم الـكتابَ يَعلَمون أنه مُنزَّلٌ من
« ربك بالحق »
سورة: الأنعام

بَيْدَ أَنَّ هناكَ فريقا سيُجمِّد إيمانَه عند أحـد الـكتب السابقة . وحين يُدعَى إلى الإيمان بهذا القرآن سيكفر و يَثْنِى عِطْفَه

« وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ قالوا نُؤْمِنُ
« بما أُنزِلَ علينا . و يَـكفرون بما وراءه، وهو الحق
« مُصدقاً لما معهم »
سورة: البقرة

والقرآن يرى فى هذا الموقف إنكارا لقضية الإيمان كلها ، فما دام هو مُصَدِّقا لما بين يديه من الـكُتب ، فلماذا لا يشمله إيمان المؤمنين بها . ؟؟

ولماذا ـ وهو فى هذا الموقف بالذات يناقش كبار اليهود الذين

حملوا يومئذ راية الجحود والعداوة للقرآن — لماذا يكفرون به وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . . ؟ لماذا يجحدونه اليوم . . ؟

يقولون : إنه الولاء لإيمانهم وكتابهم ، وأنبيائهم ؟

وعندئذ يجبه القرآن سريرتهم قائلا :

« فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين » . ؟

سورة : البقرة

وهو يزيد باطلهم دحضًا ، وحجتهم ضعفاً حين لا ينكر من الكتب السابقة شيئا ، ولا ينكر عليها شيئا . . بل يجعلها دائما موضع إجلاله وتوقيره .

« وَمِن قَبلِه كتابُ موسى إماماً ورحمة »

سورة : الأحقاف

« ولْيحكُم أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه »

سورة : المائدة

ثم هو يدعو المؤمنين به إلى الإيمان بكل ما سبق من نبي ، ورسول ، وكتاب .

« قولوا آمنا بالله . وما أُنزل إلينا ، وما أُنزل إلى

« إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ،
« وما أوتِيَ موسى وعيسى ، وما أوتِيَ النبيون من
« ربهم . لانُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون »

سورة : البقرة

ثم يلتفت القرآن صوب محمد رسول الله ؛ فيخبره أن الذين يجحدونهما معاً ـ القرآن والرسول ـ إنما يستجيبون لجهالات تُملِي لَهُم ، وأحقاد تستحوذُ عليهم .

والذى يصدُرُ عن جهل حَرُون ، أو تعصب أعمى ، أوحقد مُلتاث . لا يزيده وُضوحُ الحجة وانتصارها إلا صدودا وجحودا ، فامض أنت فى طريقك غير عابىء بهم ، ولا آسٍ عليهم :

« ولَيزيدَنَّ كثيرا منهم ما أُنزل إليك من ربك
« طُغيانا وكفرا ، فلا تَأْسَ على القوم الكافرين »

سورة : المائدة

* * *

وبنفس النهج الذى ينهجه القرآن فى مُحاجَّة أهل الكتاب ، يُواجهُ من قبلُ عَبَدة الأوثان من مشركى مكة وكفارها .

هؤلاء الذين :

« قالوا :أضغاثُ أحلام ، بل افتراه ، بل هوشاعر ،

« فليأتنا بآية كما أُرسِلَ الأولون » . . !!!

سورة : الأنبياء

« وقالوا : قلوبنا فى أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه ، وفى

« آذاننا وَقْر ، ومن بيننا وبينك حِجاب »

سورة : فصلت

« وقالوا : أساطيرُ الأولين اكْتَتَبها ؛ فهى تُمْلَى

« عليه بُكرةً وأصيلا » . . سورة : الفرقان

وقالوا : — « إفكٌ قديم » . . سورة :الأحقاف

وقالوا : — « إنما يُعلِّمُه بَشَر » . . سورة : النحل

هؤلاء الذين لم يدعُوا اتهاماً ينال من القرآن فى زعمهم إلا اقترفوه .

هؤلاء الذين رأوا فى القرآن قدَراً جاء يذيع نَعْىَ آلهتهم ، ونعىَ الضلال الذى وجدوا آباءهم عليه عاكفين .. تدرَّج القرآن معهم فى سبيل نَهْنَهة أضغانهم،وتصحيح فهمهم ، و تَألُّف قلوبهم .

وهو إذ يُدرك دَوْرَ الأنانية التى تُحرك الناس وتحدد الكثير من وِجْهاتِهم ، يسأل كفار قريش : لماذا تُخاصمون القرآن . . ؟ أخوفاً منه على أمجادكم . . ؟ وَيْحكُم إذَن . . إنه إذا كان لكم مَجْدٌ يُرتقب ، فلن يَصِلكُم به سببٌ مثلمَا يَصِلُكم به هذا الفرقان .

« لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذِكْرُكُم ، أفلا تعقلون » ! !

سورة : الأنبياء

وإذا كانت الأمم لا يخلد أمجادها شىء ، مثلما يُخلِّدها انتشارُ لسانها ولُغتها ، فهذا الكتاب سبيلكم إلى الخلود .

« إنا أنزلناه قرآنا عربيا » . . . سورة : يوسف

« بلسانٍ عربىٍ مُبين » . . . سورة : الشعراء

« قرآنا عربيا غيرَ ذى عِوج » . . . سورة : الزمر

على أن هذا القرآن وهو يُذكِّر المشركين بهذا النفع الأدبى الذى سيُفيئه عليهم إيمانُهم به ، لم يكن يريد أن يتملَّقهم ، أو يحملهم على أن يُنشئوا علاقاتهم به وَفْقَ هذا النَّفع وهذا الاعتبار .

إنما كان يُذلِّل لا غير ، بعضَ الصعاب التى تلقيها غرائزُهم

فى طريقهم ، وإلاّ ، فهو إذ يمنّ عليهم بأنه عربى مبين ، يكشف فى نفس الوقت عن التبعات الكبرى التى تترتب على هذا الاعتبار.

«وما أرسَلْنا من رسول إلا بِلِسَانِ قومه لِيُبَيِّنَ لهم »

سورة : إبراهيم

« فإنّما يَسَّرناهُ بلسانك لِتُبَشِّرَ به المتقين، وتُنْذِرَ به قوما لُدًّا »

سورة : مريم

« فإنما يَسَّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون »

سورة الدخان

« ولو نزَّلنـاه على بعض الأعْجَمِين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين »

سورة : الشعراء

فهو كتاب عربى مبين ، يخاطبهم باللغة التى يَفهمون ، ويدعوهم إلى الله الحق الذى هم به مشركون . .

وحين يذهب خصوم القرآن فى عداوته كل مذهب ، يتعقَّبُهم القرآن ناقضاً إفكهم وداحضاً باطلهم بأسلوب إيجابى سمح ، لا يُعنَى بتفنيد قولهم ، لأنهم لا يقولون منطقا يستحق التفنيد . إنما يُعنَى بكشف محاسنه هو ومزاياه ، وتبيان نفعه

وإلقاء مزيد من الضوء على حقيقته .

فهم – مثلا – يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام :

« قُلوبُنا فى أَكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفى آذاننا وَقْرٌ ،

« ومن بيننا وبينِكَ حجاب » سورة : فصلت

فيرد عليهم القرآن مقررا أن ذلك أمر طبيعى ..!! ويقول :

« قل هو للذين آمنوا هُدًى وشِفاء . . والذين

« لايؤمنون فى آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمًى ،

« أولئك يُنادَوْن من مكان بعيد » سورة : فصلت

وهم حين تُفلس حجتهم ويقولون للرسول : « ائْت بقرآن غير هذا » يكشف القرآن عن الْتواء منهجهم فى التفكير ، ويبين أن الأزمة التى يعانونها ، ليست أزمة القرآن ، بل هى فى الحقيقة أزمة الإيمان — فهم فى ريب ، بل فى جحود بالحقيقة الكبرى التى جاء القرآن يقررها وينشر عبيرها .

وما داموا لايؤمنون بالله الواحد الأحد ، ولا يرجُون لقاءه ، فسيظلون هكذا يَعمهون .

ولو أنهم آمنوا بأنّ وراء هذه الآيات إلها حكيما عليما ، ماطالبوا

الرسول بتبديلها ، ولَعَرفُوا أنَّه لا يملك هذا الحق أبدا .

« وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بينات ، قال الذين لا يرجون

« لقاءنا ائتِ بقرآن غير هذا أو بَدِّلْه ، قل ما يكون

« لى أن أُبَدِّلَه من تِلْقاء نفسى . إن أتَّبع إلا ما يوحَى

« إلى ، إنى أخاف إن عصيتُ ربى عذاب يوم عظيم »

« قل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ، ولا أدْراكُم

« به ، فقد لَبِثتُ فيكم عُمُرا من قبله . أفلا

« تعقلون » .. !؟ سورة : يونس

ويؤكد القرآن هذا المعنى لرسول الله حتى لا يضيق صدره

إذ يراهم يكذبون بالقرآن ، ويستنكفون عن طاعته .

يوكد القرآن للرسول أن نور آياته يُعشى أبصارهم ، ويقتحم

قلوبهم الغُلْفَ المُغلقة ، وأنهم لا يَشكُّون فى صدقه ، ولكنّ

أزمتهم الخانقة هى حرصهم على آلهتهم ، وكفرانهم بالله الحى

القيوم .. وما دام القرآن يهتف بوحدانية الرب ، فهم عنه معرضون

« فإنهم لا يُكَذِّبُونك ، ولكنّ الظالمين بآيات

« الله يجحدون »

« وإذا ذكرتَ ربَّك فى القرآن وحدَه ، وَلَّوْا على
« أدبارهم نُفوراً »   سورة : الإسراء
« فاستَمْسِكْ بالذى أُوحِيَ إليك ، إنك على صراط
« مستقيم .
« وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك ، وسوف تُسئلون .
« واسأل من أرسلنا من قبلك من رُسلنا ، أجعلنا
« من دون الرحمن آلهةً يُعبدون ». سورة : الزخرف

* * *

وحين يلجأ المشركون تارة ، واليهود تارة أخرى إلى التشكيك فى القرآن زاعمين أن الله لا يُنزِّل على أحد من الناس وحيا ، وقائلين : « ما أنزَلَ الله على بشَرٍ من شىء » ، يجيبهم القرآن الكريم قائلا :

« قل مَن أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً
« وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تُبدونها وتُخفون
« كثيراً ، وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » .
سورة : الأنعام

ثم يلتفت إلى الرسول قائلا :

« قُلِ اللهُ ، ثم ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يلْعبون » .

سورة : الأنعام

« بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولَمَّا يأتِهم

« تأويلُه » . سورة : يونس

وحين تأخذهم العزة بالإثم ، ويعجبون لماذا لم يجد الوحى سوى محمد لِيَتنزَّل عليه ، ويأتيه بهذا القرآن ، يجيبهم .

« اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته » سورة : الأنعام

وإذْ يأخذهم الغرور الأهوج الكاذب ، ويظنون أنه لو كان هذا القرآن حقاً ، لَهدتهم إلى الايمان به قلوبهم ، ولَمَا التفَّ حوله الفقراء المستضعفون مِن دونهم ، يردُّ عليهم القرآن فى تهكُّم ذكى .

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً

« ما سبقونا إليه ، وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا

« إفْكٌ قديم » . . !!! سورة : الأحقاف

ويمعن الكفار فى إفكهم . . يُمعنون فى محاولتهم العاجزة المفلسة ، فينعَتُون القرآن بكل ما توحى به أحقادهم .

فهو فى زعمهم سِحر .. وتارة شِعر ، وتارة مُفترى .. وتارة كَهانة ..!!

ويُدَمْدِمُ القرآن عليهم بمنطق يخطف أَبصارهم ، ويدُكُّ أباطيلهم .. وتَتَتابَعُ الآيات فى نشيدٍ قدسى مُجلْجِلْ :

« فلا أُقْسِمُ بما تُبصرون ، ومالاَ تُبصرون .

« إنه لقولُ رسولٍ كريم .

« وما هو بقولِ شاعر ، قليلاً ماتُؤمنون .

« ولا بقولِ كاهنٍ ، قليلاً ما تَذَكَّرون .

« تنزيلٌ من رب العالمين .

« ولو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل .

« لَأَخذْنَا منه باليمين . ثم لقطَعْنا منه الوَتين .

« فما مِنْكُمْ مِن أحدٍ عنه حاجزين .

« وإنه لَتذْكِرَةٌ للمتقين .

« وإنا لنعْلَمُ أنَّ مِنكم مُكذِّبين .

« وإنه لَحسرةٌ على الكافرين .

« وإنه لحقُّ اليقين » . سورة : الحاقة

ثم يثنى زمام الحديث فى ختامٍ حاسمٍ حافل ، مُوجهاً القول إلى الرسول .

« فَسَبِّحْ بِاسمِ ربك العظيم » . سورة : الحاقة

ويتركهم القرآن ، يتخبطون فى غيظهم ؛ ويتهاوَوْن تحت أضوائه النابغة ، كالفَرَاش المخبول ، حين يعلن فى عزم أنه لن يشغل نفسه بتُرَّهاتهم ، وأنه سيمضى محققاً ظفراً بعد ظفر . وفاتحاً قلوباً إثْر قلوب ، وهادياً إلى الله وإلى الصراط المستقيم أجيالاً من بعدها أجيال ، مُتسَلِّحاً بالكلمة المضيئة الهادية .

أجل ، بالكلمة وحدها . .

الكلمة التى لا تتكون من أسِنَّةٍ ، ولا مِن رِماح . . بل من حُروفٍ بسيطة سَهْلة .

« ا . ل . ر — تِلْكَ آيات الكتاب الحكيم » .
سورة : يونس

« طَ . س . م — تلك آياتُ الكتاب المبين » .
سورة : الشعراء

« ط . س — تلك آيات القرآن وكتاب مبين » .
سورة : النمل

« ا . ل . م — تلكَ آياتُ الكتاب الحكيم »

سورة : لقمان

بهذه الكلمات المُيَسَّرة فى تركيبها ، المعجزة فى جوهرها ، الفاصِلَة فى منطقها وحجتها . يمضى القرآن مُحَلِّقاً وراءه كَيْد الكائدين له ، والمتربصين به .

جاعلا حَسْبهُ أولئك الذين فتحوا لآياته قلوبهم .

« الذين إذا تُلِيتْ عليهم آياتُه زادتْهُمْ إيمانًا وعلَى

« ربهم يتوكلون » .   سورة : الأنفال

ولهؤلاء يُقدِّم نفسه ويُنْبِئُهُم ماهو .. ؟ وكيف يتَنَزَّل .. ؟

ولماذا يجىء .. ؟

إنّه : « بيانٌ للناس ، وهُدًى وموعظة للمتقين » .

سورة : آل عمران

« وإنه لَتنزيلُ رب العالمين .

« نَزلَ به الرُّوحُ الأمين .

« على قَلبك ، لِتكون من المُنْذِرين » .

سورة : الشعراء

« نزَّله رُوحُ القُدُسِ مِن ربك بالحق ؛ ليُثبِّتَ الذين
« آمنوا وهُدًى وبُشرى للمسلمين » . سورة : النحل

وبماذا نزَل ، ولماذا نزَل .؟؟

ما موضوعه . . ؟ ما وجهته ورسالته . . ؟

يجيب القرآن فى إيجاز مُبدعٍ شامل عميم .

« وبِالحق أنزلناه ، وبالحق نزَل » . سورة : الإسراء

« ما أنزلنا عليك القرآن لِتشقَى ، إلا تذكِرةً لمن
« يخشى . سورة : طه

« كتاب أنزلناه إليَك لتخرج الناس من الظلمات
« إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيزِ الحميد » .
سورة : إبراهيم

ولماذا لا تأتى آياته كما يهوى الناس ، وساعةَ يريدون . . ؟

« وما نتنزَّلُ إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ،
وما بين ذلك ، وما كان ربك نَسِيًّا » . سورة : مريم

ولماذا لم يتنزَّلْ جملة واحدة ؟ ؟

« كذلك لِنثَبِّتَ به فؤادك ، ورتَّلْناه ترتيلا » .

« وقُرآنا فَرَقْناهُ لتِقرأَهُ على النّاس على مُكْث

« ونزّلناه تنزيلا » . سورة : الإسراء

ولماذا لم يفتح جميع القلوب بنوره ما دام حقاً ، ولماذا لم يَطْو أفئدة الظالمين . . . ؟ ؟

« ونُنزّل من القرآن ماهو شِفاء ورحمةٌ للمؤمنين

« ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . سورة : الإسراء

« وإنه لَهدى ورحمة للمؤمنين » . سورة : النمل

وما طبيعة تركيبه ..؟

« مِنه آيات مُحكَمَاتٌ هُنّ أُمُّ الكِتاب وأُخَرُ

« مُتشابِهات . فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتّبِعون

« ما تشابَهَ منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتاء تأويلِه ، وما يعلمُ

« تأويله إلا الله . والراسخُون فى العلم يقولون آمنّا به

« كُلٌّ مِن عند ربنا ، وما يذّكّر إلا أُولوا

« الألباب » . سورة : آل عمران

ولمن جاء هذا القرآن . . ؟

لقريش وحدها .. ؟ أم للعرب جميعاً .. ؟ أم للناس كافّة ..؟

إنه لهؤلاء جميعاً .

لقريش . ولمن حولها من العرب . وللعالَمين . .

« وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك » . سورة : الزخرف

« وهذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ مصدقُ الذى بين

« يديه ، لتنذر أُمَّ القرى ومَنْ حولها سورة :الأنعام

« إن هو إلا ذِكر للعالمين » . سورة : ص

إنه تنزيل رب العالمين ، فليكن إذن للعالَمين جميعاً . .

للناس كلهم .

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق » سورة : الزمر

« هذا بصائرُ للناس وهُدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون » .
سورة : الجاثية

* * *

هكذا حدثنا القرآن عن نفسه .

هكذا أعطانا طرَفا مضيئاً من قصته ، ومن رحلته ، كما أعطانا قَبَساً من جوهره وحقيقته .

ومن خِلال الآيات التى تلوْناها ومن خلال آياته جميعاً ، نرى كتاباً عجيباً و فُرْقانا عظيما ، عقدَ نيَّتَه وعزمَه على تحقيق أسمى غاية وبلوغ أعظم غرض . . ألا وهو إخراج الناس من الظلمات

إلى النور عن طريق هدم الخرافة ، وإعلان سيادة العقل .
ووصْل الإنسان بالرّبّ .

ولقد قام هذا الكتاب المبين فى أقل وقت ، بأعظم عمل .
وأنجزَ فى بضع سنوات، المهمة التى عقدَ عزمه على إنجازها ، وجعل حَمَلته والمؤمنين به رُوادا ينتشرون فى الأرض — فى قلوبهم إيمانهم ، وفى أيمانهم قرآنهم .

وفى عشرات البلاد والأقطار نُكِّست أعلام ودالَت دُول ، حيث ارتفعت مكانها راية القرآن ، وقام عالَمه . .

وعلى طول الزمن، منذ ألف وأربعمائة عام ، إلى يوم الناس هذا ، وإلى أيامهم المقبلة ، والقرآنُ ناشرٌ ضياءه ، مُذيعٌ نداءه ، يَهدى إلى الله الأحد عالَماً مُتراحب الأبعاد ، وخلائقَ وافرة الأعداد

كل كلمة من آياته شريعةٌ ، وعقيدة ، ومِشعل خالد الضياء على طريق القافلة المؤمنة .

* * *

وقديماً وقفَتْ قريش تأْتمر فى بأس ويأس ، بآيات هذا القرآن ، وهى تتنزَّل آيةً ، آية .

وكانوا يُمنعون فى الـكيد لحاملِ الراية .. محمد رسول الله ، فيملأون مكة شكوكا حول الآيات الهاطلة كالغيث .

وكان القرآن يطمئنه ويقول له :

« لـكِنِ اللهُ يشهدُ بما أنزلَ إليك ..

« أنزَلَه بعلمه . .

« والملائـكة يشهدون . .

« وكفى بالله شهيداً » سورة : النساء

وحين كان كيدهم يتزاحم حول القرآن ، كالنُّذُر المخيفة ، كان محمد يفزع ، وتأخذه الهموم الجليلة خوفا على ذلك النور أن يتمكن أعداء الله من إطفائه .

ولـكنّ القرآن يهدىء رُوعه ويقول له فى ثقة عزيزة .

«وتمّت كلمةُ ربك صِدقا وعدلا ». سورة : الأنعام

« والسماءِ ذات الرَّجْع .

« والأرضِ ذات الصَّدْع .

« إنه لقولٌ فصْل .

« وما هو بالهزل » سورة : الطارق

« فَذَرْنِى وَمَن يُكذب بهذا الحديث

« سَنَسْتَدرِجُهم من حيث لا يعلمون » . سورة : ن

ويعطيه الله وعدا ، يجدُ بَرْدَ كلماته فى صدره ، وتَفِئ إليه كلُّ سكينة نفسه .

ويذهب عنه الرَّوْع ، وتجيئه البُشرى حينَ تنزل عليه هذه الآية :

« إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكْر ، وإنَّا لهُ لَحَافظون »
سورة : الحجر



.. بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

محمد بن عبد الله .

إنسان أمين ، صادق ، وديع ، أوّاب .

فى قلبه إيمان يُخصب الأفئدة . . وفى عينيه أسًى عذْب ، يتوهّج كلما طوّفت خواطره حول الضلال الذى يُعانيه قومه . . وعلى جبهته الضارعة نِفارُ عزم رشيد ، يحكى تصميم صاحبه على أن يحمل تبعات رشده تجاهَ الحياة كلها والأحياء جميعا .

وإنه ليتلمّس إلى الله طريقاً ، ويرجو منه موعداً . . فالله هو الذى سيهديه الصراط المستقيم . . الله هو الذى سيريه الحق الذى يبحث عنه ، ويُثبت على الطريق خُطاه .

ويجيئه الهدى واليقين . . ويدعوه الله ليحمل إلى الناس كلمته ، ويبلغهم رسالته . ويستقبل العبء الجليل بعزم المرسلين .

وبين الأفواه الفاغرة من الدهَش ، والعيون المحملقة من وَقْعَ المفاجأة ، وقف ذات يوم يعلن رسالته ويقول وسط الجمع الحاشد من قومه .

« إنى رسول الله إليكم جميعا » سورة : الأعراف

وتمضى الأيام كالدهور ، كل ساعةٍ منها تُلقى على كاهل الرسول متاعبها ومصاعبها ، وتُنذره فى نفس الوقت بمتاعب الساعة التى تَليها . . ! !

وسلَّطت قريش على النبى ومَن سارعَ إلى الإيمان به أضغانها ، وأحقادها المسلَّحةَ بكل وسائل التعذيب والاضطهاد .

هذا ، يُعذَّب حتى تفيض رُوحه . . ! !

وذاك . يُعذَّبُ وكل أمانيِّهِ فى الحياة أن تَفيض رُوحه . . ! !

ومحمد تنتظره السخريات فى كل طريق ، وتتهاوى عليه الحجارة ، تُدمى وجهه المُحِبَّ الودُود . .

ألا يستطيع أن يغضب . . ؟

ألاَ يستطيع أن يرد ولو على كل مائة لَطْمةٍ من خُصومه ، بلطمة واحدة منه . . . ؟

إن له من شرَف محْتِده جاهاً ، يهيئه لأنه يُقاتل ، ويحفِزُه لأن يُجرب قوَّته ولو فى معركة غير متكافئة . . معركة يُواجه فيها وهو وحيد أعزل ، مُجتَمعاً قَبَليًّا شَحذَ أنيابه ، وجَمع كَيْده . . !

إن للطبيعة البشرية مَهما يَسْمُ بها صفاء الجوهر حدوداً .
ولِينُ الجانب مهما يُوطِّئ أكْنَاف صاحبه ، فإن له مع الشرّ موعدا يتحوَّل عنده إلى قصاص ومُناجَزة .

والناس عادة ، لا يُسارعون إلى الغضب وفى أيديهم أزِمّة القوة والسلطان والغلَب .

إنما يحتاجون إلى الغضب إبَّان ضعفهم ، ومقاومتهم .

ورسول الله ، فى الأيام التى نزلت عليه فيها هذه الأيات كان فى حاجة إلى قدر من الغضب يحميه ، ويدرأ عنه غوائل التربُّص والعدوان .

بل إنه فى ذلك الموقف الذى دثَّره الوحى خِلاَلَه بهذه الآيات الكريمة ، كان يعيش فى دوَّامة من الأحداث التى لا تدع مجالا للحلم ، ولا مجالاً للعفو ، ولا مَجالاً للمهادنة .

وحين نتصور أو نَتخيَّل المشهد الذى تألَّقت فوق أهواله هذه الآيات الباسمةُ الحافلةُ بالسَّكِينة والصَّفْح ، نَرى عجباً أىَّ عجب . .

فالمشهد هناك فى ساحة أُحُد بالمدينة ، حيث فرغ لِتَوِّه

أعنف قتال دار بين المسلمين والمشركين ، وحيث عانقت أرضَ المعركة جثث ضحاياها وشهدائها من المؤمنين . . جثث لم يتركها أعداؤها سليمة . . بل شوّهوها ومثّلوا بها في وحشية داكنة .

ونزل رسول الله ومعه أصحابه ليودع إخوانه الذين استشهدوا وليحملوهم إلى حيث يدفنون . . ولكنه لم يجد شيئاً يحمله . . ! ! وجد الجثث قد تحوّلت إلى أشلاء ممزقة !! ..

لم يقنع المشركون بقتل المسلمين ، بل مثّلوا بالجثث الصريعة الشهيدة شرَّ تمثيل . . ! !

ودار بصرُ الرسول بين معالم الكارثة المُقوِّضة .

سبعون شهيداً من خيار صحبه . . كلهم قد مُثِّل بهم . . أُنوفٌ مَجدوعة . . وآذان مصلومة . . وأعضاء مبتورة . . ووسط هؤلاء جميعاً ، أَحَبُّ الناس إلى رسول الله . . عمه العظيم حمزة . . نفس المشهد..ونفس المصير...!!

وَىْ . . . وأطلق الرسول الأمين زفرة ملؤها الأسى ، وأدار وجهه قليلا .. وعزّ على عينيه وَقْعُ مُصابه،فنادت دموعها لتحجب بها قليلا أو كثيراً من المشهد المثير .

وأخذ المسلمين تيارٌ جارف من الغضب والغيظ ، وصاحوا من فَرط حُنقهم على صَوْتِ رَجُلٍ واحد : « والله لئن أصَبْنا منهم يوماً مثل هذا ، لنزيدنّ على صنيعهم ، ولَنُمثِّلن بهم مُثْلةً لم يُمثلها أحد من العرب بأحد أبداً » .

ورسولُ الله ساكت ، كأنّهُ راض عن وعيدهم وغيظهم . .

بل ويُرْوَى أنه هو أيضا قد وعد جثمان عمه ، وهو يودعه ويُناجيه بأن يثأر له وينتقم .

ولـكنْ ، ما يكادون ينتهون من الصلاة على الشهداء ؛ ولا يكادون يفرغون من دفنهم حتى تنزل الآيات الـكريمة العظيمة :

« ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنَة ،
« وجادلهم بالتي هي أحسن . إن ربك هو أعلم بِمَنْ
« ضلّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين — وإن عاقبْتُم
« فعاقبوا بمثل ما عُوقِبْتُم به . . ولَئِن صَبَرْتُم لَهُوَ
« خيرٌ للصابرين — واصْبر وما صَبْرُكَ إلا بالله ،
« ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون —

« إن الله مع الذين اتقوْا والذين هُمْ مُحسنون . »

سورة : النحل

ويُفيق الرسول عليه الصلاة والسلام من رُوَاء الوحى ، ووجهُه يتألَّق تحت ضَوء المغفرة ، ويقول : « بل نَصبرُ يارب » . . ! !

ويُصغى المسلمون لآيات الله . تُلامِسُ صدورهم المتفجرة وَعيداً، وغَيْظا ، ولَهِباً . تُلامسُها هذه الآيات فتُحيلُها بَرداً وسلاما ، وصبْرا وسُلْوانا . . !

وفيما بعد . . حين جاء يوم الفتح ، ودخل الرسول وأصحابُه مكة ظافرين ، وقف أحد الذين لم ينسَوْا بعدُ هولَ فاجعة أُحُد ، وصاح :

— « لاَ قُرِيشَ بعد اليوم . . اليومَ تُستَباحُ مكة » . . .

فإذا النبىُّ ، يرسل صوته الشَّكور قائلا :

— كُفُّوا عن القوم . . اليومَ تُعظَّم الكعبة . . . ! !

* * *

ليس أروع ما فى هذه الآيات أنها نزلت على قوم يتفجرون

ألمًا ، ويُعانون هزيمة ، ويَصْلَوْنَ ظلمًا ، فقالت لهم : اعدلوا . .

وليس أروع مافيها أنها نزلت على قوم يتوهَّجون نقمة وغيظًا فقالت لهم : اصفحوا . .

ليس ذلك أروع ماللآيات من دلالة ، على الرغم من أنها فى هـذا وحده ، وبهذا وحـده ، تفوق كل روعة آخذة ، وكل جلالٍ ميسور .

إنما أروع مافيها أنها نقلت المشهدَ من زمانه ومن مكانه ، ونقلت الرسول ، والأصحاب ، والدعوة ، إلى لُبابِ جوهرهم الذى لا ينبغى أن يغيبَ عنهم ، ولا ينبغى أن يذهبوا بعيداً عنه . .

والآن ، فلننظر . .

هذا رسولٌ يخوض مع أصحابه معركة اضطره إليها خصوم قُساة ، يريدون أن يطفئوا نور الله

ولقد انتهت المعركة بهزيمة مُزلزلة . .

فما الآيات المناسبة — فى تقدير الناس — لهذا المقام . . ؟ ؟

ما الآيات التى يمكن أن ينتظر المهزومون سماعها وبين أيديهم أشلاء إخوتهم المستشهدين . . ؟ ؟

لعلهم كانوا يتوقعون آياتٍ تشدُّ فيهم زِنادَ المقاومة وتثير قُوى المُجابَهة . .

آياتٍ إذا لم تُضاعِفْ فى أنفسهم اللَّهفةَ على القِصاص ؛ فلا أقلَّ من ألاَّ تدعُوَهم إلى الصفح والصبر . . ! !

آياتٍ تُمجد المعركة التى انتهت ، وتَقرع الطبول للمعركة المقبلة ، وتبشر المهزومين بنصر قريب . . !! هذا ما كان يُتوقَّعُ نزوله من الآيات .. فهل حَدث . . ؟؟

أبداً . . لم يحدث من ذلك شىء . .

بل جاءت الآيات تذكِّر الرسول بحقيقته وجوهره . . وحقيقةِ دعوته وجوهرها . .

جاءت تذكره بعمله الأساسى فى هذه الحياة . . تُذكِّره بأنه صاحب دعوة ، لا قائد جيوش . . بَطَلُ رسالة ، لا بطَلُ حُروب . — وكذلك أصحابه الذين آمنوا معه . .

لكأنَّ الآيات الكريمة تقول له :

— لقد هُزمت وأصحابك هذه الهزيمة المريرة . . وما فى ذلك بأس .. فأنت لم تُرسَل لتحقق انتصارات عسكرية فى جبهات

قتال ، حتى تأسوَ على هزيمة .. إنما أُرْسِلْتَ لتردَّ الإنسان إلى الرَّب .. وتَدحضَ الحواجز المصطنعة بين الخالق الخلْق ، وتهدى لِلَّتى هى أقْوَم ، وتقود النفس البشرية إلى خلاصها ومَنْجاها ..

إن مواقفك فى جبهات القتال ليست سوى لحظات عارضة ، تفرضها ضرورات لا تملك لها دفعاً ..

أمّا أنت أولا ، وآخراً ، فلستَ إلا رسولا .. لستَ إلا مذكِّراً ونذيراً

فإذا كُنتَ الآن ترى السلاح نشوانَ فى أيدى أعدائك ، مثلوماً مُهشّما فى أيدى أصحابك ..

إذا كنت الآن تسمع قريشاً تدق طبول الفرح ، وأصحابك يزفرون أنين الهزيمة ..

إذا كنت الآن ترى إخوانك صَرْعى ، لم تتركهم الكراهية العمياء جُثثاً هاجعة .. بل أبَتْ إلا أن تمثل بها لترضى حقدها اللئيم المسموم .

إذا كنت ترى كل هذا فلا تجزع .. لأنك لست ظافراً

بقدر ماتربح من معارك . . بل بقدر ما تربح من قلوب ! !

لستَ منتصراً بقدر ما تَقْتُل من خصوم .. بل بقدر ماتُحيي من أنفُس ، وبقدر ما تَهدى من ضلال .. !!

من أجل هذا ، انسَ حديث المعركة ووَقْع الهزيمة ، وتذكَّر عملك الرئيسى فى هذه الحياة .

« ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . .

« وجادلهم بالتى هى أحسن » .

أهناك « إنسانية » أروع من هذه . . ؟ ؟

حتى وهو فى قلب المعركه يتاقّى حصادها ، لاتقول له الآية :

« قاتِلْهم بالتىهى أحسن» بل تقول له : ـ « جادلْهم بالتى هى أحسن » . .

سبحان ربنا العظيم . . ! !

وتلك ظاهرة لا أعرف لها نظيراً فى الدلالة على أن محمداً لم يكن يصنع رسالته ، إنما كان يتلقاها من لَدُن حكيم خبير

والقرآن لا يَفْتَأ يدعو الرسول إلى« التى هى أحسن » .

ولا يفتأ يضرب له الأمثال التى تدعَم يقينه ورُوح السلام لَديْه .

فهو يُذكِّره بموسى وهارون ، حين أرسلهما الله إلى فرعون ذى الأوتاد ، فقال لهما سبحانه :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليِّناً
« لعلّه يتذكر أو يخشى » . سورة : طه

وهو قبل أن يدعوه إلى الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة ، يذكره بإبراهيم خليل الرحمن .

« إن إبراهيم كان أُمّة ، قانِتاً لله حنيفاً ، ولم يك
« من المشركين — شاكراً لِأَنْعُمِه ، اجْتباه وهداه
« إلى صراط مستقيم — وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه
« فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع
« ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .
سورة : النحل

والقرآن كذلك يدعو الرسول إلى أن يُعلم قومه وأمته والناس جميعاً هذا السلوك الحانىَ البارّ

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان
« ينزَغُ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبيناً

« ربكم أعلمُ بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم

« وما أرسلناك عليهم وكيلا » .   سورة : الإسراء

بيْدَ أنّ هذا النّهج يحتاج إلى مُصابرة شديدة ، ومُثابرة أشد

وهنا يدعو القرآن محمدا ليصبر ويُصابر .

« فاصبر على ما يقولون »   سورة : طه

« واصبر ، وما صبرُكَ إلا بالله ولا تحزن عليهم ،

« ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .   سورة : النحل

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » .

سورة : المزمل

« فاصبر إن وعد الله حق »   سورة : غافر

« فاصبر لحكم ربك ولا تُطع منهم آثما أو كفوراً » .

سورة : الإنسان

ويَضرب له الأمثال أيضا بإخوانه الذين سبقوه على طريق

الدعوة إلى الله ، والذين استعانوا بالصبر والصلاة

وفى المقدمة دائما يجىء إبراهيم .

« إن إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب » .   سورة : هود

« وإسماعيلَ ، وإدريسَ ، وذا الكِفْل – كُلٌّ
« من الصابرين » . سورة : الأنبياء

* * *

إن القرآن يصوغ من عبارة « التى هى أحسن » مبدأ من أبهى وأعظم مبادىء العلاقات الإنسانية فى البأساء والضرّاء معاً .

« ادفع بالتى هى أحسنُ السيِّئة ، نحن أعلم بما يصفون»
سورة : المؤمنون

« ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة
« كأنّه ولىٌّ حميم » . سورة : غافر

« خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرف وأعرض عن الجاهلين »
سورة : الأعراف

« ولا تجادلوا أهلَ الكِتاب إلا بالتى هىَ أحسن »
سورة : النحل

« فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهى لله ومن اتّبعن ،
« وقل للذين أُوتوا الكِتاب والأُمِّيين أأسلَمْتُم ،
« فإن أسلموا فقد اهتدَوْا . . وإن تولَّوْا فإنَّما عليك
« البلاغ واللهُ بصير بالعباد » . سورة : آل عمران

والرسول صاحب دعوة ، ومُبَلِّغُ رسالة ،

وهل غيرُ الحِوار الأمين وسيلٌ للبلاغ وسبيل الإقناع . . ؟؟

إنه لا سلطان له على ضمائر الناس .

« لستَ عليهم بمسيطر » . سورة : الغاشية

وليس من حقه بحال أن يُكرِهَ الناس على أن يؤمنوا إيمانه ، ويقتنعوا اقتناعه .

« أفأنتَ تُكرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين » ..؟؟
سورة : يونس

إن عليه أن يهتف بكلمة الله ، ويجهر بالحق ، فمن أبصرَ فلنفسه ومَن عَمِيَ فعليها ، دون أن يُكرِهَ أحداً على هجرِ اقتناعه .

إنَّ عليه أن يصون إيمانه ، وإيمان أصحابه من وطأة الإغراء ، والهوى ، ويحميه أيضا بكل وسائل الحماية ، من إرهاب الخصوم وعدوانهم .

« لِكل أُمَّةٍ جعلنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوه ، فلا
« يُنازِعُنَّكَ في الأمر ، وادْعُ إلى ربك . إنَّكَ
« لعلَى هُدى مستقيم » . سورة : الحج

« وإذَا رَأَيْتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعْرِضْ عنهم
« حتّى يَخوضوا في حديث غيره ، وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ
« الشيطان فلا تقْعُدْ بعدَ الذكرى مع القوم الظالمين » .
سورة : الأنعام

« .. إذا سمعتم آيات الله يُكفَرُ بها ويُستهزأ بها ،

« فلا تقعُدوا معهم حتى يخُوضوا فى حديثٍ غيره »

سورة : النساء

« وإنْ جادَلُوكَ فقُلِ اللهُ أعلمُ بما تعملون » .

سورة : الحج

ذلك هو المنهج الأمين العادل الذى يرسمه القرآن العظيم

لرحلة الكلمة فى عالَم الرسالة والبلاغ — حِوارٌ قائم على المنطق ،

باحثٌ عن الحق ، راغبٌ فى إسداء الخير .

« لا إكراهَ فى الدين ،قد تبين الرُّشْدُ من الغَىّ » .

سورة : البقرة

والذى يخطىء الحقيقة اليوم ، لن يُخطئها غداً ، ومع الأيام

يُراجع الناس أنفسهم ، وتتكشف لهم معالم الطريق ، ويفصل الله

فيما اختلفت العقول فيه .

« وإن كان طائفةٌ منكُم آمنوا بالذى أُرسِلتُ به ،

« وطائفةٌ لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يَحكُمَ اللهُ بيننا

« وهو خيرُ الحاكين » . سورة : الأعراف

وإلى أن ينبلج الفجر ، ويَتّضح السبيل ، فلِكُلٍّ

رأيُهُ وهُداه .

« لَكُم دينُكُم ولِيَ دين » . سورة : الكافرون

فإذا أسرف الخصوم على أنفسهم ، وقالوا على الله الكذب وهم يعلمون ، وبَسَطو أيديهم بالسوء والعداوة ليصدوا عن سبيل الله مَن آمَن . . وليحملوا الناس كَرْهًا على هجر إيمانهم بالله ، وبالحق ، فلا بد للحق — حينئذ — من أن يَحمى نفسَه ، ويَمْتَشِقَ سلاحه .

وعندئذ ، لا — قَبْلئذ — يرفع القرآن فى وجه البأس بأساً مثله فيقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يُقاتلونكم ، ولا تعتدوا »

سورة : البقرة

وَمَا يُدْرِيكَ ، لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ..!

« عَبَس وتولَّى ، أَن جاءه الأعمى ، وما يُدريكَ

« لعلَّه يزَّكَّى ، أو يذَّكَّرُ فتنفعَه الذِّكْرى .

« أما مَن استغنى ، فأنتَ له تَصدَّى ، وما عليك

« ألاَّ يزَّكَّى ، وأمَّا من جاءك يسعى وهو يخشى ،

« فأنت عنه تلَهَّى . . ؟ كلا . . إنها تذكِرَة . . »

سورة : عبس

* * *

لم يكن من بين أمانِيِّه — عليه السلام — أن يَذهب من الدنيا بمال ، ولا بشهرة ، ولا بمجد .

إنما كانت أمانِيُّهُ ، أن يكثر عدد الذين يهديهم الله به من الضلال .

كان منتهى آماله أن يلقى ربه الكبير فى موكب حاشد حافل من الذين استجابوا لله وللرسول . . الذين استطاع أن يلوِى أزِمَّة قوافلهم الضالّة . . ويكبَح جماح شهواتهم المتمردة ، ويغرس فى قلوبهم مكان الشِّرك توحيداً ، ومكانِ الجحود إيماناً ،

ومكان الكراهية حبا ، ومكان الزّيغ معرفة ، وفهما ، وبصيرة .

ولقد سلك إلى هذه الغاية كلّ سبيل ، فثابَر ، وصابَر ، ولايَن القلوب القاسية ، وبذلَ من ذات نفسه فوق حلم الحالمين وصبر الصابرين .

وكان وهو يدير بصره حول قومه يُبرِّح به الأسى من أجل أولئك الذين تخدعهم أباطيل الحياة ، ويغرهم بالله الغرور .

وكان معنيا بعشيرته الأقربين . . وكان يرى كل قريش ، ثم كل الناس عشيرة له وأهلا .

وكان يعلم أن أكثر العامّة يتبعون كُبراءهم . ومن ثَمّ فقد طالما تمنّى أن يهدىَ الله إلى الإيمان كُبَراء قريش وعِلْيتَها .

إنهم إن هُدُوا وآمنوا ، جاء الناس على أثَرهم سِرَاعاً راغبين، وتخلّصوا من حَقَابيل الشرك والجهالة ، وانطلقوا مع الدين الجديد نحو المَصايرِ العظيمة الوَاعِدَة . .

* * *

وإنه — عليه الصلاة والسلام — لجَالسٌ ذات يوم مع واحد من سادة قريش وكبرائها ، يحدثه عن الإسلام ويُحبِّب إليه

الإيمان ، ويكرّه إليه الكفر ، ويدعوه إلى عبادة الحى القيّوم . . وإنه لكبيرُ الأمل فى أن يرقّ قلبه ويلين . . فإذا تمّ ذلك ، يكون الله قد هدى رجلا تقتفى آثارَه عشراتٌ من الرجال .

وإذْ هو يتحدث إليه ، يُقبل عليهما « ابنُ أُمّ مَكْتوم » واحدٌ من فقراء المسلمين يتحسّسُ الطريق بعكّازته ، فهو مَكفوفُ البصر ، ضَرِير

ويقف علَى رسول الله عليه السلام ، يسأله بعض أمور الدين ويقول له : أرْشِدْنى يارسول الله .

وكأنّما أحسّ الرسول أن « ابنَ أم مكتوم » جاء فى غير أوانه . . فإن نظرةً واحدة من « السيد القُرَشِىّ » إلى هذا المسلم الفقير المُتَسَرْبِل فى أسماله المتواضعة ، ستُحرك فى أعماقه النفور من دينٍ سيُسَوِّى بينه وبين هذا الأعمى الفقير ، كما ستأخذه العزّة بالإثم ، فلا يُبدِى عن اقناعه — إذا هو اقتنع — أمام واحد من العامّة مثل ابن أم مكتوم .

ولعلّ الرسول رأى أن حديثه إلى السيد القرشى ، كان قد

بلغ اللحظة الحاسمة التى تَستسلم عندها قُوى المقاومة ، حيث أقبَلَ ابن أم مكتوم آنئذ ، فقطع تسلسُلَ الحديث ، وقطع أيضاً تسلسُلَ الشعور الذى كان دائراً داخل نفس السيد القرشى ، والذى كان يتجه فى طواعيةٍ صَوْبَ التفهُّم والاقتناع .

ولم يكن بُدٌّ من أن يُعرض الرسول عن ابن أم مكتوم . ويستأنف الحديث مع صاحب الحق فيه . . بَيْدَ أن إعراضه عليه السلام كان مصحوباً بمظاهر الضِّيق وعدم الارتياح

وهكذا ، لم يكد المجلس ينتهى حتى كانت الآيات الكريمة تتنزَّلُ على قلب محمد تُؤاخذه على ما صَنع ، وتُدير القضية فى حوارٍ سريع حاسم ، يُشعرك أن السماوات كلها قد شُغلت حينئذ بأمر هذا المسلم الفقير الضرير . ! ! ! !

وعلى الرغم من أن الآيات تخاطب الرسول مباشرة ، فإننا نراها تستعمل صيغة الماضى ، وتُوَجه الحديث إلى ضمير الغائب لا إلى ضمير المخاطَب .. فهى لا تقول : عَبَسْتَ وتوليْتَ .. بل تقول : عبَس ، وتولّى . .

وكأنها تريد بهذا أن تُعلن أن الموقف الذى وقفه الرسول

من ابن أم مكتوم ليس من طبيعته ، ولا من شيمته ،

إنه قد يليق بإنسان آخر غير محمد .. أما هو فلا ، ولهذا فإن ذلك الموقف كان دخيلا على طبيعته ، وخُلُقه ، وشيمته .. ولهذا أيضا نرى الآيات ، كأنما تُجرِّد من ذلك الموقف ذاته شخصاً آخر تؤاخذه وتُدينه وتقول : « عَبَس .. وتولّى. أن جاءه الأعمى » .

أى أن الآية الكريمة تريد وهى تؤاخذ الرسول على ما فعل ، أن تُبرىء سجاياه وجوهَره مما فعل ..

لذلك لم يكد الوحى ينتهى من تسجيل مَأخَذِ العبوس والإعراض ، مستعملا ضمير الغائب .. حتى عاد إلى ضمير المخاطَب وهو يزكّى جوهر الإيمان وجوهر الرسالة الكريمة .

فتقول الآية الكريمة :

« وما يدريك لعلّه يزَّكَّى أو يذَّكَّرُ فتنفعَه الذكرى » .

لكأنَّ القرآن يقول للرسول :

إنما أنت هادٍ ، ونذير .

إنما أنت مُزَكٍّ ، ومُذكِّر .

وإنك لترفع راية الله وتدعو إلى كلمته

والله لا يريد أحداً لثرائه ولا لجاهه

إنما يريد مَنْ يُلقى السَّمعَ وهو شهيد

يريد من يسارع إلى مغفرة من ربه ، وبين جوانحه قلبٌ سليم

يريد الذين يرَوْن فى كلمة الله خلاصَ أنفسهم ، وخَلاصَ مصايرهم ، ويُقبلون عليها بروحٍ مُشتاق .

أولئك هم أصفياؤه وأحِبَّاؤُه .

أَفَئِن جاءك منهم واحد يتعثر فى خُطاه ، ويبحث عن هُداه ، تُعرض عنه وتتولى ، وتمنح اهتمامك ، وحرصك « قاروناً » من « قوارين » المال ، ووَجهاً من عِلْية قريش وزعمائها ؛ جرياً وراء قلبه الزائغ ، وأملاً فى خلاصه المسلوب . . ؟ ؟

« وما عليك ألاَّ يزَّكَّى . . ! !

« وأمَّا مَنْ جاءك يسعَى . . وهو يخشى . . فأنت

« عنه تلَهَّى . . ؟ ؟ كلا . . » . سورة : عبس

إن هـذا الذى جاءك تسبقه إليك أشواقه ، وضَراعاته

وابتهالاته أحقُّ بإقبالك عليه ، وسعيك إليه .

أفقيرٌ هو من المال ، والآخر غَنيّ . . ؟؟

أضعيفٌ هو فى قومه ، والآخر قَوىّ . . ؟؟

لا بأس . .

فأولئك هم الذين يريدهم الله . .

المُتعَبُون ، الذين يتلمسُون الراحة . .

التائهون ، الذين يبحثون عن مَرْفأ . .

الخائفون ، الذين يبحثون عن مأْمَن . .

المستضعفون، الذين يبحثون عن مَلاَذ . .

الشُّعثُ الغُبْرُ المدفوعُون بالأبواب . .

البُسطاء الـكادحون المالئون حياتهم بالعمل والعَناء ..

أولئك الذين من أجلهم — قبـل سواهم — رُفِعَتْ « رايةُ الله » فى الأرض لتُظِلَّهم تحتها ، ولتُعان قِيام عالَمهم ، وبَعْثَ أيامهم ، وزحفَ صُفوفهم . .

فلا تَشْغَل نفسك بكل عُتلٍّ مستـكبر .

وأقبلْ بـكل نفسك ، وكل شَغَفك وحُبك على

هؤلاء البسطاء ، الفقراء الوُدَعاء ..

إن فى داخل أجسامهم الضامرة الوَهْنانة ، قلوباً شامخة مؤمنة ، أعطت الله موعدا لَيجدَنَّها حيث يريد ، وساعةَ يدعو .

وقالوا : «ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبْنا ، وإليك المصير» .

* * *

تلقَّى رسول الله من ربه هذا الدرسَ الأريب العظيم ، فلم يعد أبداً يَأْبَهُ بأولئك العِلْية الذين كان يرى فى هداهم كَسْبا كبيراً لقضية الحق والخير والإيمان .

وعاد إلى الصفوف الخلْفية يمنحها كل حرصه وحَدَبه وعنايته .

ولم يعد يقبل عليه « ابن أم مكتوم » فى أى وقت وفى أى مكان إلا ويحتفى بمقدمه ويقول : « أهلا بمن عاتَبَنى فيه ربى » .. !!

وحَذِق الرسول الدرس تماماً ، لأن القرآن لم يزلْ يذكره به دائماً ..

فذات يوم وهو جالس مع نفر من أصحابه الفقراء ، فيهم

صُهَيب، وبلال، وعمّار، وخَبّاب — مرّ بهم مَلأٌ من قريش، فقالوا للرسول :

— يا محمد ، أرضيتَ بهؤلاء من قومك .. ؟ أهؤلاء الذين مَنّ اللهُ عليهم مِنْ بيننا . ؟ ألا تجعل لهم يوماً ولنا يوماً ، فإنا نستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الضَعَفَة والعبيد . ؟!

وجاءت آيات الله كالبرق ، تخطف أوهامهم ، وتقول للنبى:

« ولا تَطرُدِ الذين يدعون ربّهم بالغَدَاةِ والعَشِىّ

« يُريدون وَجهه . ما عليكَ من حِسابهم من شىء ،

« وما مِن حِسَابِك عليهم من شىء فَتطرُدَهُمْ

« فتكُون من الظالمين .. وكذلك فَتَنّا بعضَهم

« ببعض لِيقولُوا أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا . ؟

« ألَيسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرين .. » سورة : الأنعام

ولا يفتأ الوحى يذكره بهذا السلوك ويحضُّه عليه .

« واصْبر نفسَكَ مع الذين يدعُون ربّهم بالغَـداةِ

« والعَشِىّ يريدون وجهه ، ولا تعْدُ عيناكَ عنهم

« تُريد زينةَ الحياة الدنيا ، ولا تُطع من أغفلنا

« قلبه عن ذِكْرِنا واتّبع هَواه وكان أمرُهُ فُرُطا » .

سورة : الكهف

ويُذكّر بأيام الله ، وما شهِدَته من محاولات ذَوِى الثراء والبأس لِيُبْعِدُوا عن نور الله عباده الفقراء .. وكيف كانوا يُعيِّرونَ أنبياءهم بمن سارَع إليهم من المستضعفين .

فقوم نوح يقولون له :

« وما نَراكَ اتّبعكَ إلاّ الذين هم أرَاذِلُنَا ،

« بَادِىَ الرأى ، وما نَرى لكُم عَلينا من فَضل » .

سورة : هود

وألحّ قومُه عليه . كى يُنحِّىَ عنه فقراء المؤمنين ، فما كان جوابُه — كما قصّ القرآن الكريم إلا أن قال :

« ومَا أنَا بِطارِدِ الذين آمنوا إنهم مُلاقُوا ربِّهم

« ولكنى أراكُم قوما تجهلون .. ويَاقوم مَنْ

« ينصُرنى من الله إن طردتُهم .. أفلا تذكّرون »

سورة : هود

ويُمعن القرآن فى خَضْدِ شوكة الصَّلِفِينَ بمكانتهم ، المزهُوِّينَ بجاهِهم ، المستَعْلِين بأموالهم ، فيضربُ لهم مثلاً ،

يتلوه عليهم ليزدجروا ، كما يتلوه على الضعفة من المؤمنين ليزدادوا فرحا بما معهم من نعمة الهدى واليقين .

أما بطل ذلك المثال فهو قارون .

« إن قارُونَ كان من قومِ مُوسى فبَغَى عليهم ،
« وآتيناه من الكُنوز ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوء بالعُصْبَةِ
« أُولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يُحب
« الفرِحين . وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرة ،
« ولا تَنْسَ نصيبَكَ من الدنيا وأحْسِنْ كما أحسَنَ
« الله إليك ، ولا تَبْغِ الفسادَ فى الأرض . إن الله
« لا يحب المفسدين
« قال : إنما أُوتِيتُه على علمٍ عندى .. أَوَلَمْ يعلم أنَّ الله
« قد أهلَكَ من قبله من القرون مَن هُوَ أشَدُّ منه
« قُوةً وأكثرُ جمعاً — ولا يُسْئَلُ عن ذنوبهم المجرمون
« فخرج على قومه فى زينته ، قال الذينَ يريدون
« الحياة الدنيا ، ياليت لنا مثل ما أُوتِيَ قارون إنه
« لذو حَظٍّ عظيم .

« وقال الذين أوتوا العلم: وَيْلَكُمْ، ثوابُ اللهِ خيرٌ لِمَنْ
« آمن وعَمِلَ صالحا ، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون .
« فخسَفْنا بِه وبِداره الأرض ، فما كان له من فِئةٍ
« يَنصُرونَهُ مِن دُون الله وما كان من المنتصرين .
« وأصبحَ الذين تمنَّوْا مكانَه بالأمس يقولون وَىْ
« كأنَّ الله يَبسُطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِرِ،
« لولاَ أنْ مَنَّ اللهَ علينا لَخسفَ بنا ، وَىْ كأنَّه
« لا يُفلحُ الكافرون ـ تلك الدارُ الآخرة نجعلها
« للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ،
« والعاقبةُ للمتقين » . سورة : القصص

* * *

أكانَ القرآن بموقفه هذا ، يُمجِّد الفقر، ويتحدَّى الثَّراء..؟

كلا . وإنما هو يرد الإنسان إلى جوهره وحقيقته . ويرفع قدره فوق كل مُواضعات العُرف الإنسانى حين تضطرب فى يد هذا العُرف مَعايير القِيم وحقائق الأشياء .

ففى كل زمان ومكان ، ينظر الناس إلى أهل الثراء والحظوة ،

نظرة ملؤها التوقير ، والمهابة .. بينما ينظرون إلى أهل الخصاصة والفقر ، نظرات تتراوح بين الرثاء والازدراء .

والقرآن يواجه هذا الميزان المختلّ المضطرب بمنطق صارم حاسم .

منطق يستمد صدقه من إدراكه لحقيقة الإنسان .

هذه الحقيقة المتمثلة فى أنه — أى الإنسان — حامل مشيئة الله فى الأرض .. وهو بحكم كونه « خليفة الله » كما ذكر القرآن ، فإن وظيفته فى هذا الكوكب ، تحقيق الغرض الجليل الذى ارتبطت — فى ضمير الأزل — أسبابُ وجوده ، بحتمية تحقيقه .

إن النوع الإنسانى لم يُوجد لتنشطر صفوفه إلى أغنياء ، وفقراء .. ولا إلى سادة ، وعبيد .. ولا إلى أقوياء وعجزة .. ولا إلى رُعاة ، وسوائم ..

إنما وُجد ليتحرك صفا واحداً ، داخل حُظوظ متكافئة من القدرة ، والسيادة ، والكفاية ..

والقرآن يرفض أن تكون فى الحياة الإنسانية مقاعد أمامية ، ومقاعد خَلْفية . . ! !

يرفض أن تُقرِّر « شهاداتُ الميلاد » مصاير الناس ، وتحدد أقدارهم . . ! !

وهو إذا كان يعلن أن الله فضَّل بعض الناس على بعض فى الرزق . فإنه لم يكن يعنى أبداً أن هناك أناساً خُلِقوا لِيُعلَفوا . . وآخرين خُلِقوا لِيُتْرَفوا . . . ! !

لم يكن يعنى أبداً أنَّ أقدار الناس فى الحياة يُحددها عدد الأموال التى فى جيوبهم وخزائنهم .

إنما يحددها نصيب كل فرد من الجوهر الإنسانى ذاته .

وما الجوهر الإنسانى هذا . . ؟ ؟

إنه الحقيقة الحرَّة التى انتشرت فى ملايين الأجيال من البشر ، تُعبر عن نفسها وتُحقِّق ذاتَها . .

إنه العمل الدائم فى صدق ، وشوق ، وذمَّة ، لتحقيق الخير العام ، والكمال العام ، وتمكين جميع البشر من أن يصيروا « مُواطنين سعداء » فى « مدينة الله الفاضلة » .

ونصيب كل فرد فى هذا العمل الجامع ، وهذا السعى المشترك ،
هو الذى يحدد قدره ، ومكانه .

لا الفقر ولا الغنى .. لا الصحة ولا المرض ..

لا البياض ولا السواد .. لا السيطرة ولا التبعيّة ..

لا شىء من ذلك كله ، يحق له أن يتحكم فى أقدار الناس
وفى مصايرهم .

إنه العمل وحده .. العمل الصالح الذى يستمد خصائصه من
جوهر الإنسان وجوهر رسالته .

فالفقير الذى يحمل فى هـذا العمل عِبئَه ، عظيم وإن قعَد
به فقره .

والثرىُّ الذى يتخلَّف ويُخْلِدُ إلى الدَّعَة ، صغير وإن
قفز به ثَراؤه .

فإذا تخلَّف الفقير ، وتقـدَّم الثرىُّ ، فقـد باء الأول
بالإثم ، ولم يشفع له فقره .. وذهب الثانى بالخـير ، ولم يقعد
به ثراؤه ..

فالعمل السَّديد النافع من أجل خـير النفس وخير النوع ،

هو المعيار الذى يُوزَنُ به الناس .

« فمَن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيراً يرَه ، ومن يعمل

« مثقال ذرَّةٍ شرًّا يره » . سورة : الزلزلة

و « قارون » الذى عرَضت الآيات السالفة نبأه ،

لم يُضرَبْ مثلا للشر بسبب ثرائه ، بل لأنه بَغَى على الناس

بهـذا الثراء .

فعلُوُّه وفساده ، هما اللذان ساقاه إلى مصيره الوخيم ، وليس

ثراؤه وغِناه .

من أجل هـذا ختم القرآن الـكريم قصة قارون بهذه

الآية الباهرة .

« تلك الدارُ الآخرةُ نجعَلها للذين لا يُريدونَ

« عُـلُوًّا فى الأرضِ ولا فَسَاداً ، والعاقبة للمتقين » .

سورة : القصص

* * *

ومن أجل هذا أيضا ، يُضرَبُ المَثَل فى القرآن أكثرُ

من مرة ، فتقول آياته الصادقة ،

« ضَرَبَ اللهُ مثلاً ، عبداً مملوكاً لا يقدرُ على شىء .

« ومَن رَزَقْناه مِنّا رزقاً حسَناً فهو يُنفق منه سِرّاً

« وجَهراً ، هَلْ يَسْتَوُون . . !؟ الحمدُ لله ، بل

« أكثرُهم لا يعلمُون . .

« وضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلين ، أحدُهما أبْـكَمُ لا يَقْدِرُ

« على شىء ، وهو كَلٌّ على مَولاه ، أيْنَما يُوَجِّهْهُ

« لاَ يَأْتِ بخير . . هل يستوِى هو ومَن يأمُر

« بالعدل ، وهُو على صراطٍ مُستقيم » . . ؟؟

سورة : النحل

فالذين يضَعُون ثروتهم ، والذين يضعون طاقتهم فى خدمة الخير العام ، هم المثَل الطيِّب والأعلى فى هذه الحياة .

أما الذين ينسحبون من تبعاتِهم تِجاهَ هذا الخير العام ، فأولئك هم عبيد العجز ، ومَماليكُ المَهانة — أثرياء كانوا ، أم فقراء .. سادةً كانوا ، أم تَبعاً ..

ذلك هو معيار التفوّق الذى يرسمه القرآن .

وهو حين يقول :

«ورَفَع بعضَكم فوق بعضٍ درجات» سورة : الأنعام

«انظر كيف فضَّلْنا بعضَهم على بعض» . سورة : الإسراء

فتلك ، أفضليةُ العمل . . والدرجاتُ التى يتبوَّأُها الناس بما يبذلون من جُهدٍ شريف لتحقيق أغراض شريفة .

وإن القرآن الكريم ليُصَحِّح فى أفهام الناس معنى التفوق والتَّبوُّء إذ يقول :

« ولَو شاءَ اللهُ لجعلَكُم أُمَّةً واحدةً . ولكن
« ليبلوكم فيما آتاكم فاستَبِقُوا الخيرات . . إلى اللهِ
« مَرْجِعُكُمْ جميعاً فيُنَبِّئكم بما كنتم فيه تختلفون » .
سورة : المائدة

أجَل . . « فاسْتَبِقُوا الخيرات » .

هذا وحده ، المعراجُ الذى رفعه القرآن للناس كى يصعدوا عليه إلى كل كمالٍ ميسور ، وإلى كل رفعة مأمولة .

وهذه وحدها ، السِّمة المميِّزة للذين تؤهلهم جهودهم

العادلة لأن يأخذوا مكانهم مع بُناة الحياة . .

* * *

من أجل إقرار هذه الحقيقة ، عاتب الله رسوله حين لوَى اهتمامه — ذات مرة — عن مؤمن فقير ، مُؤْثِراً عليه واحداً من السادة ، طمع الرسول فى إسلامه . !

وعلى الرغم من صدق النيّة ونُبل المقصد ، فإن القرآن لم يرضَ لهذه الواقعة أن تمرّ دون أن تكون موضع تساؤل منه ومؤاخذة .. ودون أن يَقْرعَ عندها الأجراس ، معلناً حقوق « المُواطن العادى » ومقدساً كرامته . . !!

ولم يشأ القرآن لهذه الواقعة أن تمرّ دون أن يُسجل فى هذه الآيات ، وفى آيات أخرى مُماثلة ، المعايير السديدة العادلة التى تحدد أقدار الناس وتجعل التفاضُل بينهم موصول الأسباب بهذه المعايير نفسها ، لا بما تواضَعُوا عليه من زخرف الحياة وغُرورها . .

وعلى الرغم من أن الرسول عليه السلام كان بما فطره الله عليه من خُلُق عظيم آخذا بتلك المعايير العادلة ، وآخذا مكانه

دوما مع البسطاء ، الفقراء ، الوُدعاء .

على الرغم من هذا فإن الله سبحانه وتعالى لم يدَعْ هـذه الهفوة تمرُّ دون أن يجعل منها درساً يملأ رنينُه الصادق وَعى الناس جميعاً عَـبْر الأحقاب والأجيال .

« عبَس وتولَّى ، أَن جاءه الأَعمى ، وَما يُدريك
« لعله يزَّكى، أو يذَّكَّرُ فتنفعَه الذكرى - أما من استغنَى،
« فأنت له تَصدى .. ؟ وما عليك ألاَّ يزَّكَّى !!
« وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه
« تَلهَّى ؟! كلاَّ . . . إنها تذكِرَة . . . »

سورة : عبس

* * *

إن القرآن يريد أن يهدى الناس إلى عالَم يَقوم الإخاء فيه مكان التمايُز ، والحبُّ مكان الكراهية ، والتَّناصُر مكان التربُّص . .

عالَم ، يكون الولاء فيه للحق ، لا للمنفعة . . وللجوهر الباقى ، لا للأغراض الزائلة . .

وإذ كان الإنسان مَحطّ الرجاء فى حمل كل أمانة جليلة من أمانات الحق والحياة ، فيجب أن يتحرر هذا الإنسان من كل ضغط يَعوقُه .

وإذا كان « الإنسان » أو « الإنسانية » هما مجموعة أفراد ..

فلا بد إذن من أن يتحرر كل فرد من كل ضغط .

ومن شرّ هـذه الضغوط — الإحساس بالدونيّة . .

إحساس الفرد — أى فرد — بأنه ضئيل ، وبأنه هَمَل ، وبأنه شىء غير منظور ، وغير مذكور . .

ولهذا لم يكد القرآن يرى فردا من الأمة يتعرض لهذا الموقف حتى سارع إلى نجدته ، ووقف بجانب كرامته وحقه ، يذود عنهما فى إصرار وجلال . ويرفض أن يَنال منهما شىء ، حتى لو كان الثمن هداية عظيم من عظماء قريش لعله إن أسلم ، دخَل الناس على أثره فى الدين أفواجا . . !

ويُرَاجِعُ القرآن هـذه الدائرة . ويهتف هتافا قُدْسيا بكل حقوق « الفرد العادى » وحقوق الناس « جميع الناس » ،

فينفخ فيهم من روحه عزّة وكرامة ، ويدعوهم لينهضوا مرفوعِي الجباه ، ويقول لهم :

« ولا تَهِنوا ولا تحزَنُوا ، وأنتم الأعْلَوْنَ إن « كنتم مؤمنين » . سورة : آل عمران

ويُذكِّرُهم بأنهم مع الله على موعد دائما .

« ولقد صَدَقَكُم الله وعدَه » . سورة : آل عمران

ثم يرفع أقدارهم إلى المُنتهى فيقول :

« وهو الذى جعلكُم خلائِفَ الأرض » سورة :الأنعام

ثم يرفعهم إلى مستوى المسئوليات العامة ، ويرفعهم إلى مستوى القيادة ، ومع مَن . . ؟؟ مع رسول الله الذى اختاره الله واصطفاه . فيتلقَّ الرسول نفسُه أمر القرآن بألاَّ يُبْرِم من دون الناس أمراً ، بل يشاورهم ويستفتيهم .

« وشَاوِرْهُمْ فى الأمر » . سورة : آل عمران

ويُمهد القرآن لهذا الأمر بالشورى تمهيداً تناهى فى الحكمة والروعة فهو يقول :

« ولوْ كُنْتَ فظا غليظَ القلب لانفَضُّوا من

« حَولك فاعفُ عَنْهم .. واسْتغفِرْ لَهُم .. وشَاوِرْهُمْ

« فى الأمر » سورة : آل عمران

تصوروا رسولا ينزل عليه الوحى من ربه ، ثم يدعو أناساً عاديين ، فقراء ، بُسَطاء .. ويسألهم : ما رأيكم .. ؟ وبم تُشيرون علىَّ .. ؟ ثم ينزل عند رأيهم .. ! !

ألا يرفع هذا السلوك من أقدار الناس أمام أنفسهم .. ؟

ألا يمنحهم ذلك ثقة كاملة بأنهم سادة ، وبأنهم الأعْلَوْن .. ؟

ألا يدفعهم ذلك إلى الإيمان بأنهم أهل للرسالة الجليلة التى حملوها ، وبأن مسئوليتهم عن حفظها لا تقل عن مسئولية الرسول نفسه ؟

بلى .. ولقد مضى الرسول يلبى دعوة القرآن ، ويستشيرهم فى كل خطوة ..

استشارهم يوم بدر ، فأجابوه ، وقد رأوه يُفوِّضُهم فى تقدير الموقف كله

— « يا رسول الله . والله لو خُضتَ بنا هـذا البحر لخضناه معك » .

وشاوَرَهم يوم أُحُد .. وكان رأيه ألاّ يخرج إلى العدو ، وكان رأى المسلمين أن يخرجوا ، فنزل عند رأيهم .

وشاوَرَهُمْ يوم الخندق .. وكان من رأيه أن يُصالح الأحزاب على ثُلُث ثمار المدينة ، وعارض رأيَه بعضُ المسلمين ، فتخلّى عن رأيه ونزل على رأيهم .

بل شاوَرَ أصحابَه فى أخصِّ شئونه ..

فيحدثنا الإمام « ابن كثير » أنه حين شاعَ حديثُ الإفك وتعرضت أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها لمؤامرة دنيئة أرادت أن تنال من سمعتها الطاهرة أملاً فى إيذاء الرسول وإحراجه ، دعا النبى أصحابه وقال لهم

— « أشيرُوا علىّ معشر المسلمين ، فوالله ماعَلِمْتُ على أهلى مِن سُوء » .. !!

* * *

والقرآن العظيم ، يكاد يتركنا نفهم أنه يُعلّق على الشورى أكبر الآمال فى تحرير الناس من الهوان ، فهو فى آية أخرى من آياته يقرن الشورى بالإيمان وبالصلاة ، ويجعلها مثل الإيمان ومثل

الصلاة واجباً على الناس جميعاً ، وليست فُرصةً لِصَفْوةٍ أو طائفة فيقول القرآن فى وصف المؤمنين:

« والذين استَجابوا لِربِّهم ،وأقاموا الصلاة ، وأمرُهُمْ « شُورَى بينهم » . سورة : الشورى

فليست الشورى ترَفاً ..

وليست فرضَ كِفاية ، يَنُوبُ بعضُ الناس فى أدائه عن بعض ..

بل وليست مُجردَ حقٍّ يملك أصحابُه أن يتنازلوا عنه .

إنما هى صفة ثابتة تأخذ مكانها فى الآية إلى جوار الصفات الأساسية للمؤمن ،كالإيمان بالله ، وكالصلاة .

بل إن هذا المقطع من الآية ، المقطع الذى لايزيد عن كلمات ثلاث هى :« وأمْرُهُمْ شُورى بينهم » — كانت أهميته لَدَى القرآن بالغة ، إلى حد أنه سمَّى السورة التى تضم هذه الكلمات الثلاث باسم « الشورى » ..!!

سورة تنتظم ثلاثاً وخمسين آية ، ليس بها عن الشورى

سوى هـذه الـكلمات الثلاث ، ثم يعطيها القرآن سِمَتها ويخلع عليها اسمها . ! !

ومغزى آخر ، له دلالته الـكبرى

فَسُورة الشُّورَى هـذه مَـكِّية ، نزلت فى مكّة ، وفرض القرآن على المسلمين الشُّورَى وهم يقيمون يومئذ فى بلد يعجُّ بخصوم أقوياء

وكان القرآن يومئذ مَعْنِيًّا ببناء « الشخصية المؤمنة » ، فهو إذن لا يرى فى الشورى سبيلا للوصول إلى القرارات الحـكيمة التى تتطلبها سلامة الجماعة فحسب .

بل ويراها قبل هذا ، سبيلا — أىّ سبيل — إلى بناء الفرد القوى وشَحْنِه بكل قُوَى الثقة ، والتّهلّل ، والإبداع .

* * *

على هذا النّسق الباهر — بَدْءا من : « عَبَس وتولّى » ، إلى : « وَشاوِرْهُمْ فى الأمر » — مضى القرآن الـكريم يرفع من قدر « المُواطِن العادى » وينشىء له عالَمه الـكبير .. ويُعِدهُ لتسلُّم الراية .!

مضى يُبَشِّرُ بمساواة شاملة صادقة ، ليس لها سَقَطُ مَتاع ،
ولا نِفَايَةُ أَتْبَاع
مُساواة لا غَبْن فيها ، ولا ضَرَاوَةَ لها .

ومِن بِلالٍ ، وصُهَيْبٍ ، وخَبَّابٍ ، وإخوانهم البُسطاء
الوُدَعاء — أسَّسَ القرآن أمّة جاءت في أوانها ، لِتُصَحِّحَ موازين
الحياة ، وتُقَوِّم اعوجاجها .

وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا !!

ذات يوم ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يجتاز شوارع المدينة ومعه بعض أصحابه ، سمع صوتاً يناديه من وراء ، يا عمر . .

فالتفت عمر ، فإذا سيدة عجوز تقبل عليه ، ولا تكاد تبلغه حتى تستوقفه قائلة :

— رُوَيدَك ياعمر ، حتى أكلمَك كلماتٍ قليلة . .

ويقف أمير المؤمنين أمامها خاشعا ، وتتحدث إليه فتقول :

— ياعمر . عهدى بك وأنت تُسمَّى « عُمَيْرا » تُصارع الفتيان فى سوق عكاظ ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت « عمر » . . ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت « أمير المؤمنين » . . فاتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت ، خشِيَ الفوْت » . . ! ! !

وانبرى إليها أحد أصحاب عمر ، قائلا : لقد اجترأتِ على أمير المؤمنين . .

فجذبه عمر من يده ، وقال له :

— « دعها فإنك لا تعرفها . إنها « خَوْلَةُ بنت حكيم »
التى سمع الله قولها من فوق سماواته ، وهى تُجادل الرسول
فى زوجها وتشتكى إلى الله . فعُمرُ واللهِ حَرِىٌّ أن يسمع
كلامها » . . ! ! !

فمَن كانت هذه السيدة العجوز التى استوقفت أمير المؤمنين
فى الطريق لتقول له : كنت « عُميرا » فأصبحت « عمر » . .
وكنت « عمر » فصرت « أمير المؤمنين » . . ؟ !

إنها السيدة التى أفرد القرآن لها سورة من سُوَره أسماها
سورة « المُجادِلَة » . .

ولكن — قبل أن نُطالع قصتها — ما شأن القرآن بها . . ؟

إن شأنه بها ومعها ، هو شأنه بمشاكل الناس التى كان يتتبعها
فى يقظة ، ودَأَبٍ ، ورحمة .

المشاكل التى كان يتتبعها من أكبرها إلى أضألها باهتمام
وَدُود ، ويرسم على ضوئها مبادىء الشريعة والسلوك .

وسوف نرى كيف أنجز القرآن مهمته هذه .

ولنعُد إلى النبأ الذى بدأنا به الموضوع — نبأ « المُجادِلة »

التى أصغى إليها أمير المؤمنين فى خشوع ، لأن الله من قبل سمع حِوارها وشكواها .

* * *

ذات يوم كان الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً فى فِناء داره ، ومعه زوجه عائشة ، حين قدِمتْ عليهما سيدة تضطرب خُطاها ، وتضطَرِمُ أنفاسها .

إنها « خَوْلَةُ بنت حكيم » زوجة « أَوْس بن الصامت » جرى بينها وبين زوجها نِقارٌ أغضبه ، فحرّمها على نفسه قائلا : أنتِ علىَّ كظَهْرِ أمّى . .

وكان هذا أولَ ظِهارٍ يقع فى الإسلام ، فلم تدْرِ الزوجة إن كانت بهذا الظِّهار قد طُلقت أم هى غير طالق . . فحملت ، همّها ، وأسرعت إلى رسول الله .

قالت :

— يا رسول الله — زوجى « أوْس » ، أكَلَ مالى ، وأفنى شبابى ، ونَثَرْتُ له بطنى ، حتى إذا كَبِرَتْ سِنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهَرَ منى .

فأجابها رسول الله قائلا :

— ما أراكِ إلاَّ قد حَرُمْت عليه . .

وعادت « خَوْلَة » تحاوِرُ الرسول وتقول :

— إنَّ لى منه صِبْيَةً ، إن ضَممتهم إليه ضاعوا . .

وإن ضممتُهم إلىَّ جاعوا . .

وعاد الرسول يقول :

— « ما أراكِ إلا قد حرُمْتِ عليه » .

وبكَتْ « خَوْلَة » وقالت : إلى الله أشكو أمرى وأمر صِبْيتى . .

ومضَت تُبدىء فى شكواها وتُعيد . ورسول الله يسمع صامتاً .

وفجأة أخذَه مِثلُ الرُّعَواء ، وأظَلَّتْه السكينة التى كانت تأخذه حين ينزل القرآن على قلبه ، فيذهب فى استغراق بعيد

وأوْمَأَتْ « عائشة » إلى الزوجة ، أنِ : اصمُتى

وبعد لحظات من الصَّمت الحكيم ، حرك الرَّسول لسانه الصدوق بآيات من القرآن الكريم :

« قَد سَمِعَ اللهُ قولَ التى تُجادلُكَ فى زوجها ،
« وتَشتكى إلى الله . . واللهُ يَسمعُ تَحاوُرَكُما ،
« إنَّ اللهَ سميع بصير .
« الذين يُظاهِرُون مِنكُمْ من نِسائِهِم ، ماهُنَّ
« أمهاتِهم ، إن أُمهاتُهم إلا اللائى وَلَدْنَهم ،
« وإنَّهُم لَيقولون مُنكَراً مِن القولِ وزُورا ،
« وإن الله لَعفُوٌّ غفور .
« والذين يُظاهِرونَ مِن نِسائِهم ثم يَعودون لِما قالوا
« فتَحريرُ رقبةٍ مِن قَبلِ أن يتَماسَّا ذلكم تُوعَظون
« به واللهُ بما تعملون خبير .
« فمَن لَم يَجِدْ فَصِيامُ شهرين مُتتابِعَيْن مِن قبل أن
« يَتماسَّا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مِسكيناً .
« ذلك لِتُؤمنوا بالله ورسوله ، وتِلْكَ حُدودُ الله
« وللكافرين عذاب أليم » . سورة : المجادلة

وحين أتمَّ الرسول تلاوة الآيات أرسل فى طلب الزوج ،
فجاء يسعى :

وسأله الرسول :

— أتجدُ رقَبةً تعتقُها . . ؟ قال : لا

قال الرسول : أتستطيع أن تصوم شهرين مُتتابعين . . . ؟

قال الرجل . والذى بعثك بالحق إنى إذا لم آكل المرتين ، والثلاث يكاد يَعْشُو بَصرى . . ! !

سأله الرسول : أتستطيع أن تُطعم ستين مِسكيناً . . ؟

قال : لا . إلا أن تُعِينَنى

فأعانه الرسول عليه السلام بثلاثين صاعا .

* * *

عند ما ظاهَرَ الرجل من زوجته قائلا لها : أنتِ علىّ كظهر أمى ، ولم يكن لهذه الواقعة سابقة فى الإسلام ، سارع القرآن إلى تِبيان حُكمها .

ولقد جاء حكمُه زاجرا لكل من يُحاول أن يَجترح مثل هذا السوء .

فعُروة الزواج عُروَةٌ وُثقَى لا يُريد الله لها أن تترنح تحت رحمة النزوات الطارئة .

وإذا كان « الطلاقُ » أبغضَ الحلال إلى الله ، فماذا يكون « الظِّهار » وهو أشدُّ عبثاً بالحياة الزوجية . وأشدُّ تهديداً لها . . ؟ !

لقد جعل القرآن كفّارته مُوجِعةً حتى يستقيم الأزواج على الجادّة .

وحين نعود إلى جوهر الواقعة التي نحن بصددها ، نجد ما يَبْهَرُ الألباب حقا .

فالمرأة لم تكد تحمل بَثّها وشكواها إلى رسول الله . . حتى خفّ القرآن لنجدتها ، مُسجِّلاً كلماتِه وحُكمَه في مشهدٍ حافل . . ! ثُم تاركاً بين سُوَره المباركة سورة تحمل قصة « البطلة » التي أثارت هذا الموقف كله بِحِوارها — تلك هي : سُورةُ « المُجادلة » . . ! !

ولسوف نجد هذا الاهتمام يتجلّى ويتألّق في كل مُناسبة فلا يكاد يسأل سائل حتى يتنزّل القرآن بالجواب .

ولا يكاد « يتأزّمُ أمر » حتى يتقدم القرآن بالحلول .

ولا يكاد « يأتمر متآمر » ، حتى يَدهمه القرآن بأضوائه الكاشفة ، فيكشف خَبْئَه .

ومن مشاكل السلوك العابرة ، إلى مشاكل المجتمع الغامرة ، كان القرآن يتنزل دائما وحثيثاً بحُلولِه السّديدة .

* * *

كان أصحاب رسول الله يتزاحمون حول مجلسه ، وإذا سبق أحدهم إلى هذا المجلس ظافرا بمكان ؛ فإنه يضنُّ به ولا يتخلّى عنه تحت وطأة أى اعتبار .

فهذه الرقعة الصغيرة التى يشغلها المسلم بقعوده بين يدى الرسول تساوى عنده « عرشا » ، بل هى خير وأبقى من كل « العروش » فكيف يتركها لغيره مهما يكن هذا الغير . . ؟

وذات يوم قدم جماعة من البَدْرِيِّين ، الذين شهدوا غزوة بدر ، وكانوا بصفتهم هذه موضع رضاء الله ، وتقدير رسوله . . فلم يجدوا لهم فى مجلس الرسول مكاناً دانيا ، فظلّوا وُقوفاً حتى شقَّ على رسول الله عليه الصلاة والسلام وقوفُهم .

ولم يتكرر ذلك بعد ، فإن القرآن سرعان ما جاء يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحُوا
« فى المجالس فافسَحُوا يَفْسَحِ الله لكم ، وإذا
« قيل انشُزُوا فانشُزُوا يرفعِ الله الذين آمنوا منكم
« والذين أوتُوا العلم درجات ، والله بما تعملون
« خبير » . سورة : المجادلة

* * *

ويهاجر الرسول إلى المدينة ، ويُؤمَر أن يجعل قبلته فى الصلاة « بيت المقدس » .

ويَمتثلُ الرسول أمر ربه ، طاوياً صدره على حَنِين مُتوقد، ومَشْبُوبٍ إلى «الكعبة» .. وإنه لَيُقَلِّبُ وجهه فى السماء . وكأنَّه ينتظر منها — على شوق — كلمةً تَشفى صدره ؛ ويَقر بها حَنينهُ . . كلمةً تأْذَنُ له أن يتخذ من الكعبة قِبلة لصلاته .

وينزل القرآن :

« قَد نَرى تقلُّبَ وَجْهك فى السماء فلنُوَلِّيَنَّك
« قِبلةً ترضاها ، فوَلِّ وجهك شَطْر المسجد

« الحرام ، وحيثُ ما كنتُم فَوَلُّوا وجُوهَكم
« شَطْرَه » . سورة : البقرة

ويتخذ اليهود هذا التحول مدعاةً للتهجُّم على الرسول وإشاعة الشكوك والرِّيَب ، وبَثِّ الفتنة بين المؤمنين .

ويطرحون هنا وهناك أسئلتهم الخبيثة : لماذا غيّر محمد قبلته .؟

ويُسارع القرآن ليقمَعَ بمنطقِه المُبين مَكرَ الماكرين ويقول .

« سَيقولُ السُّفَهاء مِن الناسِ ما ولاَّهُمْ عَن قِبْلتهم
« التى كانوا عليها ؟ قل لِلّهِ المشرقُ والمغربُ يهدى
« مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم » سورة : البقرة

ويتساءلُ المؤمنون فى قلق عن مصير إخوانهم الذين ماتوا وهم يُصلُّون إلى القبلة الأولى فيطمئنهم القرآن قائلا :

« وما كان اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُم . إن الله بالناس
« لَرءوفٌ رَحيم » سورة : البقرة

* * *

ويسأل الرسولَ أصحابُه عن الخمر والميسر ، فتنزل الآيات

« قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومَنافعُ للناس ، وإثمهما أكبرُ

« من نَفْعِهما » سورة : البقرة

وبهـذه الآية هَيَّأ القرآن الأذهان لخطوة تالية ، لم يلبث أوانُها أن جاء فنزلت الآية

« لا تقرَبُوا الصلاة وأنتم سُكارَى » سورة : النساء

وبهذه الآية أيضاً اقترب القرآن من كلمته الأخيرة فى شأن الخمر والميسر ، فما إن حلّ الميقات المناسب لهذه الكلمة حتى قالها :

« ياأيها الذين آمنوا ، إنمـا الخمر ، والمَيْسِرُ ،
« والأنصابُ ، والأزلامُ ، رِجْسٌ من عَمل الشيطان
« فاجتنبوه لعلكم تفلحون » سورة : المائدة

* * *

وكان الرجال الذين يرعون فى أكنافهم يتامى ، يخلطون أموالهم إلى أموالهم .. فلما نزلت الآية

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلْماً ، إنما
« يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسَيَصْلَوْنَ سعيرا .. »
سورة : النساء

تأثَّمَ أولياء اليتامى وعزَلُوا أموالهم وحدها .. بل وعزلوا

طعامهم وشرابهم . وذهبوا فى التحوّط مذهبا بعيدا سبّب المتاعب لهم ولليتامى أنفسهم .

فسارَعَ القرآن يدلّهم على الطريق الوسَط ، ويأمرهم بالقصد حين سألوا الرسول

« ويسألونك عن اليتامَى ، قُلْ إصلاحٌ لهم خير ،
« وإن تُخالِطُوهُمْ فإخوانُكم ، واللهُ يعلم المُفسدَ
« من المُصْلِح » سورة : البقرة

وإن القرآن لَيَتتبّعُ حاجات الناس فى ذلك المجتمع الذى ينشأ باسْمِه ، وتحت رايته ، ويتتبّعُ أسئلتَه جميعاً ، فيجيب عنها

« يَسْئلونك : عن الأهِلّة » ؟ سورة : البقرة
«يسألونك عن الشهر الحرام» ؟ البقرة : سورة
« يسئلونك : عن الأنفال » ؟ سورة : الأنفال
« يسئلونك : ماذا ينفقون » ؟ سورة : البقرة
« يسألونك ماذا أُحِلّ لهم » ؟ سورة : المائدة

وحتّى هذه أيضا . .

« يسئلونك : عن المَحِيض» . ؟؟ سورة : البقرة

وليس فى مشاكل الناس ماهو صغير ، وما هو خطير .

فأمام كل مشكلة مهما تكن ضئيلة ، يتحرك القرآن بكل قُدراته وكل مسئولياته .

وإذا كانت المشكلة واقعةَ حالٍ خاصة ، لم يُعالجها داخل هذا الواقع فحسب .. بل يضعها تحت المجهر ، حتى إذا رأى كل مضاعفاتها المحتملة عالجها العلاج الشامل القيم ، وجعل من علاجه هذا قانونا عاما وشِرْعةً ومِنهاجا .

غاضَبَ رجل امرأته ذات يوم ، وأراد أن يَكيدَ لها ويَغيظها ، فقال : والله لا أُطَلِّقُكِ أبدا ، ولا آويكِ أبدا . .

فسألته الزوجة : وأنّى لكَ هذا . . . ؟

قال : أطلقك ، حتى إذا أوشكت عِدَّتُكِ على التمام راجَعْتُك .. ثم أطلقُك ، وهكذا . .

فشكَتِ الزوجة إلى رسول الله . وانتظر الرسول هُدَى ربه . فنزل القرآن بهذه القاعدة العامة .

« الطَّلاقُ مرتان ، فإمساكٌ بمعروف أو تَسريحٌ بإحسان » سورة : البقرة

ثم أدار القرآن نُورَهُ على القضية كلها فذهب ينظم الحياة

الزوجية ويحفظ للمرأة كل حقوقها إذا رأى الزوج فراقهـا فيقول :

« ولا يَحلُّ لكم أن تأخُذوا مِما آتيتمُوهن شيئاً
« فإن طِبنَ لكُم عن شَيءٍ منه نَفْساً فكلُوه
« هنيئاً مَريئاً . ولا تُمسِكُوهُن ضِراراً لتَعتدوا ، ومن
« يَفعلْ ذلكَ فقد ظلَم نفسَه » سورة : البقرة

* * *

وهذه عظمة القرآن حقا .. !

فهذا الكتاب الذى يَشغَل نفسه بأسْمَى القِيَم وأخطر القضايا ، لايجد بأسا ــ أىّ بَأْس ــ فى أن يُعطى اهتمامه وبنفس الدرجة ، للمشاكل العارِضة التى قد تسبب للناس بعض الألم ، أو بعض الحيرة .

الكتابُ الذى يتحدث عن الله الواحد الأحد .. ويتحدث عن المصير .. وعن الدور الجليل الخالد الذى اصطُفِى الإنسان لأدائه على هذه الأرض..

القرآن الذى يتحدث عن هـذه القضايا الكبرى ،

لا يستنكِفُ عن إلقاء سَمْعِه لمن ذهبوا يسألون عن المحيض . ثم يَشغَلُ نفسه بهذا السؤال ، ويسارع بالجواب .

« قُل هُو أذًى ، فاعْتزلوا النِّساءَ فى المَحِيض ولا
« تَقربُوهُنَّ حتى يطْهُرْن » سورة : البقرة

ونظرتُه إلى الأشياء مُفعمةٌ دائما بالجلال والحكمة..و هو ينفذ إلى اللُّباب المستَسِرِّ الذى لا تقع عليه العين وسط الزحام .

فهو – مثلا – كى لا تُضارَّ الطفـولة الغريرة الغَضَّةُ بأى خلاف ينشأ بين الوالدَيْن ، نراه يُفْرِد لحقهـا فى الرضاع بعض آياته .

« والوالداتُ يُرضِعْنَ أولادهُن حولَيْنِ كاملين
« لِمن أراد أن يُتِمَّ الرَّضَاعة
« وعلَى المولُود لهُ رِزقُهن وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف
« لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلا وُسْعَها
« لا تُضَارَّ والدةٌ بِولَدِها
« ولا مولودٌ لهُ بولده .
« وعلى الوارِثِ مِثلُ ذلك . .

« فإن أرادا فِصالاً عن تَراضٍ مِنهما وتَشاوُرٍ فلا
« جُناح عليهما .
« وإن أردتُم أن تسترضِعُوا أولادكُم فلا جُناح
« عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف .
« واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير »
سورة : البقرة

ألا فلننظر مرة أخرى هذه الآية .

« فإن أرادا فِصالاً عن تَراضٍ منهما وتَشاوُرٍ »

إن الفِصال هنا ، يعنى الفِطام .

وفطام الرضيع قبل عامين ، مسألة تشغل القرآن ..

تماما ، كما تشغله قضية التوحيد والإيمان .. !!

وهو يشترط إذا كان الفِطام قبل عامين أن يتمّ عن تَراضٍ من الأبوين وتَشاوُرٍ ، حتى يوفر بهذا للرضيع كل حماية ممكنة .

هذه رعاية فذّة خارقة ، ولقد كان الرسول الذى يتنزل عليه القرآن يَعيها جيدا .

من أجل هذا قال عن ولده إبراهيم ، وهو يبكيه :

— « إن ابنى مات على الثَّدْى ، وإن له مُرضِعاً فى الجنة »

لـكأنَّ حق الرضيع فى اللَّبن حق مقدس غير مَجْذُوذ ، فحَتَّى إذا مات قبل أن يستكمل أجلَ رضاعه ، كان من حقه أن يستكمله فى فرصة أحلى وأغلى .. فى الجنّة . . !!

لقد أعطى القرآن هذه القضية اهتماما فائقاً . وفى أكثر من سورة ، وفى آيات كثيرة ، أخـــــذ يقرر حق الرضيع فى الثَّدى الحنُون .

وإن مغزى هـذه العناية — كما أسلفْنا — يتمثل فى أن الـكتاب الذى يعطى كل هذا الاهتمام لأمور يبدو أنها خارجة عن موضوعه ، هو كتاب كريم جاء يهتف بالهدى ودين الحق . . جاء يؤسس وطنا جديداً للعقل وللروح وللضمير . . جاء يختم الرسالات والأديان، فما بَالُهُ يَشغل نفسه بالمرضعات والرُّضعاء ؟؟!

حين أتأمل هذا المغزى الباهر أجد نفسى أمام جلالٍ فريد . . ! !

* * *

وهو كذلك يُعنَى كل العناية بالمترملات اللاتى غيّب الموت

أزواجهن — متى تنتهى عِدَّتهُن . . ؟ متى يَصِرْن فى حل من الزواج إذا أَرَدْن . . ؟ ويُعنَى بالمُطلَّقات بعد زواج . . وبالمُطلَّقات « مِن قَبل أن تَمَسُّوهُن » . . !!

* * *

ويَـكُفُّ بأس الجاهلية عن الأطفال الذين يقتلهم آباؤهم خشية الإملاق .

« قد خَسِرَ الذين قتلوا أَوْلادَهم سَفَهاً بغيرِ علم »

سورة : الأنعام

«ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق، نحن نَرْزُقهم وإيَّاكم « إن قتلهم كان خِطْأً كبيراً » . سورة : الإسراء

وعن البنـات اللاتى كان نصيبهن الوأْد والدَّس فى التراب .

« وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظَلَّ وجهُه مُسودًّا «وهو كَظيم . يتوارى مِن القوم مِن سُوء مابُشِّرَ بهِ ، « أيُمسِكُه على هُونٍ أم يدُسُّه فى التراب . ألاَ ساءَ « ما يَحْـكُون » .

سورة : النحل

وحين يرى القرآن العظيم فَاشِيَة الربا تَفْشُو . . ،
« والفائدة » المُهظة تلفحُ عافية الناس وتَهرأ حياتهم ، يُرسِل
آياته المُشْرَعَة .

« الذين يأكلُون الرِّبا لا يَقُومون إلاَّ كما يقُومُ
« الذى يتخبَّطُه الشيطانُ من المَسِّ ، ذلك بأنهم
« قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّبا . . وأحلَّ الله البيع
« وحرَّم الرِّبا . فمن جاءه مَوعِظةٌ مِن ربه فانتهى
« فلهما سَلَف وأمرُه إلى الله . ومَن عادَ فأُلئك
« أصحابُ النار هم فيها خالدون » ، سورة : البقرة

قالوا : إنما البيع مثلُ الربا . .

حُجة داحِضَة أرادوا بها أن يُبرروا جريمة الاغتيال
التى يغتالون بها حياة الناس تحت ضغط العوز والحاجة ، فجبهم
القرآن بالحكم الحاسم .

« أحلَّ الله البيع وَحرَّم الرِّبا » . سورة : البقرة

ثم يُتبع هذه الآية بآيات أخرى :

« يَمحقُ اللهُ الربا ويُرْبِي الصدقاتِ واللهُ لا يحب
« كُلَّ كفَّارٍ أثيم .
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ من
« الرِّبا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فَأْذَنُوا
« من الله ورسوله ، وإن تُبتم فلَكُم رُءوسُ
« أموالِكم لا تَظلِمُون ولا تُظلَمون » . سورة : البقرة

آيات رادعة قارعة يُضمِّنها القرآن كل غيرتهِ على الضعفاء ، وكل نقمته على مصَّاصي الدماء .

من أجل هذا ، لم يَكَدِ المسلمون يَرونَ قرآن الله يحرمه على هذه الصورة الرهيبة حتى سارعوا إلى نَبْذِه عنهم ، ومَن كان منهم يتعامل به قبل تحريمه ، وضَع كل ما كان له فيه .. واستردَّ مَحْضَ مالِه لا غير ، وحتى رأس ماله هذا ، راح يطهره بفَيْضٍ من الصدقات ، والانفاق على المعسرين .

* * *

كان القرآن يتتبع آلام الناس فيفندها ، وجراحاتهم فيضمِّدُها ، ومَشا كلهم فيقول فيها قولا بليغاً .

كان كأنما عينه على كل حركة . وكأنما اذنه على كل همسة . فلا يكاد يسمع أنينا إلا خف بالنجدة . ولا سؤالا إلا سارع بالجواب، ولا يكاد يرى عثرة إلا بادرها بالهدى ، ولا ظلمة إلا بددها بالضياء . . . !

كان دائما « يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » . .

أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

منذ بدأ القرآن يتنزَّل إلى أن أتمَّ حديثه وبلَغ خِتامَه ، وهو حريص على أن يَبُثَّ فى وَعْى الناس أنه يُخاطبهم جميعاً ، ويَنشُد الخير لهم كافةً .

ولقد دعا الرسولَ أول مادعاه إلى أن يُنْذر عشيرته الأقربين.

ثم أمَره أن يُنذر أمَّ القرى — مكة — وما حولَها ..

ثم دعاه ليحمل مسئولياته تجاه البشر كلهم ، مُذكِّرا إياه أن هذا القرآن الذى يتنزل عليه ليس كتابَ قبيلة ، ولا أمة . . إنما هو « ذِكْرٌ للعالمين » . .

ولما هالَ الرسولَ ضخامة العِبْء ، ولعلَّه ساءل نفسه ، كيف سينقل هذه الآيات والهدى إلى العالمين ، قال له القرآن :

« إنْ عَليك إلا البلاغ »   سورة : الشورى

ولقد صدق الله وعده ، وحقق القرآن نبوءته ، فسادَت آياته مَسير الشمس فى كل الدنيا ، وكل الأجيال .

* * *

والقرآن الذى جاء يُنادى « العالَمين » ، يعلم أنَّ من قبله كُتُباً ، وأديانا ، ورُسُلاً ، ومؤمنين :

ولم يكن له بُدٌّ من أن يبدأ دعوته العميقة الشاملة ببيان مكانه من تلك الكتب والرسالات ، ومكانها منه .

ولقد أعلنها واضحة مبينة أنه ليس بِدْعاً من الكُتُب ، وأنه لا يبدأ نهجا جديداً لم تعرفه الحياة من قبل ، وإنما يستأنف الرحلة المباركة التى بدأتها كتبٌ سابقة ، وأنبياء سابقون .

إن القرآن وإن كان ينسج خيوط دعوة جديدة إلا أنه إنما ينبعث من الضمير الرشيد الأول ، وإنما يحمل راية إبراهيم ، وموسى ، وعيسى .. ويُبلِّغ بلسان عربى مبين نفسَ الحجة البالغة التى صدَّحَت بها من قبل ، التوراةُ والإنجيل .. وهكذا خاطب القرآن الرسول فقال :

« ما يُقالُ لك إلا ما قد قِيلَ للرسُل من قَبْلك »
سورة : الأنبياء

* * *

نحن الآن أمام غرض من أجلّ وأسمى الأغراض التى زكّاها القرآن .

هذا الغرض الجليل الباهر ، يتمثل فى أنّ هناك دينا واحدا ، وليس ثمة أديانٌ شتّى . .

ألا فلنمض مع هذه السطور من البحث فى أناة وانتباه كبيرين ـ فهنا سيطالعنا القرآن الكريم بأعظم مُحاولاته وأسماها .

إنه يبدأ بالرسول وبالذين آمنوا معه فيؤكّد لهم هذه الحقيقة ويُركّز عليها أبصارهم وبصائرهم :

« ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسُل من قبلك » .

سورة : الأنبياء

ويزيد هذا تِبيانا فيقول :

« شَرَعَ لكُم من الدين ما وَصَّى به نُوحاً والذى
« أوحينا إليك ، وما وصّيْنا به إبراهيم ، وموسى ،
« وعيسى ، أنْ أقيموا الدين ولا تتفرّقُوا فيه » .

سورة : الشورى

« أقيمُوا الدين ، ولا تتفرّقوا فيه » . . . ! !

ويُعلن احترامه وتوقيره للكتابَين الكبيرين اللذين حملا الرسالة من قبله — التوراة والإنجيل فيقول :

« وقفَّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مُصدِّقاً لما بين
« يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هُدًى ونور » .

سورة : المائدة

ويُبارك المؤمنين بعيسى ويُحسن وصفهم قائلا :

« وجعلنا فى قلوب الذين اتَّبعوه رَأْفةً ورحمة »

سورة : الحديد

ولكى لاتضيع معالم الوحدة الدينية ، وتتقطع أواصر الرَّحِم والقربى النابضة فى كل الرسالات والكُتُب ، ذهب القرآن يُقاوِم الذين يُحرِّفون التوراة والإنجيل وما أُنزل من عند الله .، وناداهم :

« يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُون الحقَّ بالباطل ،
« وتكْتُمون الحق وأنتم تعلمون » سورة : آل عمران

ولكنه وهو يقاومهم يحرص على ألاَّ يسلُك تجاههم سُلوكا يزيد من حدَّة الخلاف ، ويُصيب « وَحْدَة الدين » بأذى ، فهو

يُبادرُ ويعلن أنْ ليس أهل الكتاب جميعاً ، ممّن يلْبِسُون الحق بالباطل ، ولا ممّن يُحرّفون الكلِم عَن مواضعه .. بل إن فيهم الأبرار الصادقين .

« لَيْسُوا سَواءً ، مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلُون
« آياتِ اللهِ آناءَ الليل وهم يَسجدون . يؤمنون بالله
« واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن
« المنكر ، ويَسارِعُون فى الخيرات وأولئك من
« الصالحين » سورة : آل عمران

« ومِن قَوم مُوسىٰ أُمَّةٌ يهدون بالحق ، وبه يعدلُون »
سورة : الأعراف

وحتى أولئك الذين يُحرّفون الآيات ، ويقيمون الصعاب والمتاعب أمام القرآن من أهل الكتاب ، يُوصى القرآن بهم خيرا فيقول :

« ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتابِ إلاَّ بالتى هى أحسن
« — إلا الذين ظَلَموا منهم — وقولُوا آمنا بالذى
« أُنزل إلَينا وأُنزِلَ إليكم ، وإلاَهُنا وإلاَهُكم

« واحد ، ونحنُ له مسلمون » سورة : العنكبوت

إنه حريص على أن يقرر « وَحدة الدين » . فأولئك الذين آمنوا بكتابٍ واتبعوا رسولاً ليسوا سوى إخوة أشِقّاء لكل المؤمنين فى كل الأزمان والأيام والأجيال . .

وهو يوصى المسلمين أن يقرروا هذه الحقيقة ويهتفوا بها دوْما .

حتى حين يُجادلون أهل الكتاب عليهم أن يقولوا : « آمنا بما أُنزل إلينا ، وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد »

والقرآن يدعو أبناءه إلى اعتناق « وَحدة الدين » ، ويجعل الإيمان بها جزءا من صميم العقيدة والإيمان .

هكذا تُفصح الآيات السالفة ، وهكذا تفصح هذه الآية :

« يا أيها الذين آمَنوا ، آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب
« الذى نَزّل على رسوله . ، والكتاب الذى أَنزلَ
« من قبل . . ومَن يكفر بالله ، وملئكته وكُتُبه ،
« ورُسُله ، فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » . سورة : النساء

وهو يصف المؤمنين بأنهم :

« يؤمنون بما أُنزِلَ إليك ، وما أُنزِل من قبلك »
سورة : البقرة

* * *

وبعد أن يُرسِيَ قواعد هـذه الوَحدة في قلوب المسلمين ، يذهب إلى أهل الكتابَيْن الكبيرين — التوراة والإنجيل ، ليعالج التمزُّق الذى جنَوْا به على إيمانهم — ويبدأ القرآنُ فيُعلن عجبَه كيف يختلف الذين يتلون كُتُبا مقدسة ، مصدرها جميعا واحد . وغايتها كلها واحدة . . ؟!

« وقالت اليهودُ لَيْسَتِ النصارَى على شيء ، وقالت
« النصارى ليست اليهودُ على شيء ، وهم يتلُون
« الكِتاب » . . !!
سورة : البقرة

ثم يُسارع ، فيسألهم : لماذا يكفرون بمحمد

« وما محمد إلا رسول قد خلَت من قبله الرُّسل » .
سورة : آل عمران

ولماذا يكفرون بالقرآن ، وهو مُصدِّقٌ لما معهم من كُتُب ، وداعٍ إلى احترامها والإيمان بها . . ؟!!

ولماذا يكفرون بالإسلام إن كانوا مؤمنين . . ؟

إن الإسلام ليس عنوانا على طائفة معينة من الناس .

بل كل دين ، إسلام . .

وإبراهيم أبو الأنبياء جميعاً ، كان دينه الإسلام . . وكل ذراريه مسلمون

فالذين كتابهم التوراة ، والذين كتابهم الإنجيل ، لا بد إذن فى تقدير القرآن أن يكونوا مسلمين ، لأن « إبراهيم » الذى جاء موسى وعيسى ومحمد من عَقِبِه ، وساروا على نهجه ، كان أولَ المسلمين .

« ما كان إبراهيمُ يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن
« كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » ،
سورة : آل عمران

« وإذا يرفع إبرهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ .
« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .
« ربنا واجعلنا مُسلمَيْن لك ، ومن ذريتنا أمة مُسلمةً
« لك . .   سورة : البقرة

فالقرآن إذن لا ينشىء دينا جديداً ، إنما يبعث من جديد

دينَ إبراهيم .

« إنَّ أوْلَى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتبَّعوه ، وهذا

« النبيُّ والذين آمنوا ، واللهُ وليُّ المؤمنين » .

سورة : آل عمران

وهو يرفع نفس الراية . . رايةَ التوحيد . ويُعيدها إلى

مكانها الأعلى .

ويختار كلمة « الإسلام » لا ليميزَ بها قوماً من قوم . ولكن

لأنّها العنوان القديم لِتُرَاث إبراهيم . .

و« إبراهيم » نفسه ، أول من سمى الدين « إسلاما » .

ومفهوم كلمة « إسلام » تتسع لكل مؤمن فى كل زمان .

فالمسلم عند القرآن هو :

« من أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلهِ وهو مُحْسنٌ ، واتَّبع مِلَّة إبراهيم

« حنيفا » .

سورة : النساء

ولهذا ، فالقرآن فى حواره مع أهل الكتاب يعجَب ويتساءل

لماذا اختلفوا وتفتتوا إلى « يهود » و « نصارى » .

أليسوا جميعاً أبناء إبراهيم . . ؟

وإذَن ، فلماذا لا يسيرون على هُداه . . ؟

لماذا يقاتل بعضهم بعضا ، ويقول اليهود ليست النصارى على شئ ، وتقول النصارى ليست اليهود على شئ . . !

ولماذا ، والفريقان أهل كتاب ، يجادلون ويُناوئون أهلَ القرآن وهم لهم إخوة . . ؟

« وقالوا كونوا هُودًا ، أو نصارَى تهتدوا . قل بَلْ « مِلَّةَ إبراهيم حَنيفا وما كان من المشركين »

سورة : البقرة

ويسألهم القرآن أيضاً ، لماذا وأنتم أبناء إبراهيم تُقاومون النبي الذى جاء يبعث مِلَّته ، ويحيي عقيدته . . ؟ ؟

« ومن أَحْسَنُ ديناً ممَّن أسلم وجهَه لله وهو محسن ، « واتبع مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً ، واتَّخذ الله إبراهيم خليلا »

سورة : النساء

إن الدين الذى جاء به موسى ، والذى جاء به عيسى ، والذى جاء به محمد ، هو فى حقيقته دين واحد ، مادام الكل أبناء إبراهيم . .

وهذا الدين الذى بدأ بإبراهيم ، ثم حمل أمانته أنبياء كثيرون فى مقدمتهم موسى ، والمسيح ، يُختم اليوم بمحمد ، ويَستكمل موضُوعَه وبناءه بالقرآن .

« اليومَ أكملتُ لكم دينَكم » سورة : المائدة

وهذه الأجيال المتساوقة ، والصفوف الهائلة من البشر الذين ساروا تحت راية الدين من إبراهيم ، إلى محمد . إنما هم فى حقيقتهم أبناء أمة واحدة ووطن روحى واحد .

« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون »

سورة : الأنبياء

فلماذا تقطّعوا أمرهم بينهم ..؟ هكذا يتساءل القرآن — ولماذا يكفرون بما أُنزل على محمد ، وهو الحق من ربهم .؟ لماذا يؤمنون بكلمات الله الأولى ، ويَجحدُون كلمته الأخيرة . .؟؟

هل الإسلام أمر طارئ عليهم ..؟

أبدا ، إنه لم يكن كذلك قط . . بل كان ولا يزال . .

« مِلّةَ أبيكم إبراهيم ، هو سمّاكُمُ المسلمين »

سورة : الحج

هل تعصّب لنفسه وانطوى عليها ..؟ .

أبداً ، بل اعتبر الإيمان ناقصا ومردوداً مالم يستوعب تقديس جميع الرسل وجميع الكتب وكل المرحلة السابقة من الدين .

« قولوا آمنا بالله ، وما أُنزل إلينا . وما أُنزلَ
« إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ،
« والأسباط ، وما أُوتِيَ موسى ، وعيسى ، وما أُوتِيَ
« النّبِيُّون من ربهم . لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم ونحنُ
« له مسلمون » سورة : البقرة

هل اختص أتباعه — دون الآخرين — بفضل الله ورحمته . ؟

فى الآيتين التاليتين أحكم جواب .

« وقالوا لَن يدخل الجنـة إلاَّ مَن كان هُودًا
« أو نَصارَى ، تلك أمانِيُّهم . قل هاتُوا برهانكم
« إن كنتم صادقين » سورة : البقرة
« بلَى من أسْلَمَ وجهَه لله وهو مُحسن ، فله أجره عند
« ربه ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون »

سورة : البقرة

هكذا يَضَع القرآن هذه المُقابلة الفاصلة

فبينما يردد بعض أهل الكتاب يومذاك من اليهود والنصارى ، أن رحمة الله خالصةٌ لهم وحدهم ، إذا بالقرآن يقول لهم : لا ، بل هى لكل مَن يحمل قلبا سليما ويأتى عملا صالحا . . هى لكل مَن يُسْلِم وجهه لله وهو مُحسن :

« إن الذين آمنو ، والذين هَادُوا ، والنصارى ،
« والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل
« صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ولاَ خوف عليهم
« ولاَ هُمْ يحزنون » سورة : البقرة

هكذا يضرب القرآن مثلاً ، ليس يُشبهه مَثَل — فى رحابة الأفق،وعالَمية الدعوة ..!!

فهو يقول :

« إن الدين عند الله الإسلام » . سورة : آل عمران

وما الإسلام . . ؟؟

إنه « مِلَّة إبراهيم حنيفاً » . سورة : النساء

« فاتبعوا مِلَّة إبراهيم حنيفاً » . سورة : آل عمران

ومَنْ إبراهيم . . ؟؟

إنه أبو الأنبياء جميعاً

« وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ويعقوب ، كُلاًّ هَـدينا ،

« ونوحاً هدينا من قبل ، ومِن ذُريته داود وسليمان

« وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى

« المحسنين .

« وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس . كل من الصالحين .

« وإسماعيل واليَسَع ويونس ولوطا ، وكُلاًّ فضلنا

« على العالمين . .

« ومِن آبائهم وذُرِّياتهم ، وإخوانهم . واجْتَبيناهُمْ ،

« وهديناهُم إلى صراطٍ مستقيم » . سورة : الأنعام

هذا — إذن — كما يقرر القرآن إبراهيم أبو الأنبياء ،

قال الله له :

« إنى جاعلُكَ للنـاس إماما » . سورة : البقرة

وهو أيضا الرائد الأول والرسول الأول للدين . .

« إذ قال له ربه أَسْـلِمْ ، قال : أسلمتُ لرب

« العالمين . ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ، ويعقوبُ :
« يا بَنِيَّ إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ
« إلا وأنتم مسلمون . .
« أم كُنتم شُهداء إذْ حضَر يعقوبَ الموتُ إذ
« قال لبنيه ما تعبدون مِن بعدى : قالوا نعبد
إلاهَكَ وإلاهَ آبائك ، إبراهيمَ ، وإسماعيلَ ،
« وإسحاق ، إلهاً واحدا ، ونحن له مسلمون » .

سورة : البقرة

فما دام الدين دينَ ابراهيم

وما دام ابراهيم أبا الأنبياء جميعا ، وقائد الزحف الدينى كله

وما دام أهل الكتاب جميعاً يُقرّون بهذه الحقيقة ، ويرون فى ابراهيم عليه السلام الأبَ ، والمعلّم ، فلماذا — إذَن — لا يسيرون صفا واحدا تحت راية إبراهيم . . ؟؟

بهذا المنطق الصادق الأخّاذ ، عرضَ القرآن قضية « وَحْدَةِ الدين » .

وعلّم محمدا أن يقول :

« إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . دينا قيماً ،

« ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » .

سورة : الأنعام

وأذّن بين الناس جميعاً قائلا :

« أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » سورة : الشورى

* * *

ولكن ، إذا كان الدين واحدا . . ففيمَ إذن كان الأنبياء العديدون ، والرسُلُ الكثيرون . . ؟ ؟

إن القرآن يُعلّمنا أن الناس تختلف ألسنتهم ، ومشاكلهم واستعدادهم ، من أمة إلى أمة ، ومن جيل إلى جيل ، وذلك يقتضى أن يكون لهم هُداة يخرجون من نفس البيئة ونفس الصفوف .

« ولِكُلّ قومٍ هاد » . سورة : الرعد

هداة يُجسّلون روح الأمّة ، ويحملون خصائصها ، ويدركون مشاكلها ، ويتكلمون لسانها

« وما أرسلنا من رسولٍ إلاَّ بلسانِ قومه لِيُبَيِّنَ لهم » . سورة: إبراهيم

وهؤلاء الهُداة والمرسلون ، مهما يتتابعون ويكثُرون ، فهم لا يتناقضون أبدا ، إنما يُركِّزون جميعاً بأساليبَ شتَّى على حقيقة واحدة ؛ هى الحق ، والخير .

هذه الحقيقة التى هتف بها قديما ابراهيم :

«أنِ اعبدوا اللهَ ،مالكم من اله غَيرُه» سورة: المؤمنون

« واعملوا صالحا » . . سورة : المؤمنون

فالإيمانُ برسولٍ واحد يقتضى الإيمان بكل المرسلين .

والإيمان بكتاب يقتضى الإيمان بالكتب جميعاً .

من أجل ذلك طالب القرآن أتباعه بأن يؤمنوا بجميع الرسل ، والأنبياء ، والكُتُب ، ليحققوا بهذا الإيمان « وَحْدة الدين »

كما طالبَ أهلَ التوراة ، وأهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد وبالقرآن ، ليحققوا بهذا الإيمان كذلك « وَحْدةَ الدين » .

واعتبر القرآن أيَّ نُكوص عن هذا السبيل ، نُكوصاً عن شرْعة ابراهيم .

كما قرر أن العقيدة تتعرض للخطر الجسيم اذا أنكر صاحبها رسولا من الرسل ، أو كتابا من الكتب .

« إن الذين يكفرون بالله ورُسُله ، ويقولون نُؤمِنُ
« ببعضٍ ونكفُر ببعض ، ويُريدون أن يتخذو
« بين ذلك سبيلا
« أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعْتَدْنَا للكافرين
« عذاباً مُهينا
« والذين آمنوا بالله ورُسُله ، ولم يُفرِّقوا بين أحَدٍ
« منهم ، أولئك سوف يُؤْتيهم أجورهم ، وكان الله
« غفوراً رحيما » سورة : النساء

ولقد أعطى القرآن جميع الأنبياء من ولائه وحبه واحترامه عطاءً مُفيضاً ، وحيَّاهم فى أنفسهم ، وفى جهادهم تحيات طيبات فعن إبراهيم قال :

« إن إبراهيم كان أُمَّة » سورة : النحل

وعن داود قال :

« وآتاه الله الملك والحكمة » سورة : البقرة

وسليمان :

« ووهبنا لداود سليمانَ نِعم العبدُ ، إنه أوّاب »

سورة : ص

وإدريس :

« إنه كان صِدِّيقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً علياً »

سورة : مريم

وأيوب :

« إنّا وجَدناه صابراً ، نِعم العبدُ إنه أوّاب »

سورة : ص

ويونس :

« وإن يُونُسَ لَمِن المرسلين » سورة : الصافات

ويوسف :

« إنه من عبادنا المُخلَصين » سورة : يوسف

ولوط :

« وأدخلناه فى رحمتنا ، إنه من الصالحين »

سورة :الأنبياء

وموسى :

« إنى اصطفيتُك على الناس برسالاتى وبكلامى ..

« فخذ ما آتيتك . وكُن من الشاكرين »
سورة : الأعراف

وهارون :

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ، وضياء ،
« وذِكراً للمتقين » سورة : الأنبياء

ونوح :

« إن الله اصطفى آدم ونوحا وآلَ إبراهيم
« وآل عمران على العالمين » سورة : آل عمران

وزكريا :

« ذِكرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا » سورة : مريم

ويحيى :

« مُصَدِّقاً بكلمة من الله ، وسيِّداً ، وحَصُوراً ،
« ونبياً من الصالحين » سورة : آل عمران

ومريم :

« يا مريم إن الله اصطفاكِ ، وطهركِ ، واصطفاكِ
« على نساء العالمين » سورة : آل عمران

وعيسى :

« اسمُه المسيح عيسى بن مريم ، وجيهاً فى الدنيا
« والآخرة ، ومن المقرَّبين . ويكلم الناس فى المهد
« وكهلاً ، ومن الصالحين » سورة : آل عمران

« وآتينا عيسى بن مريم البيِّناتِ ، وأيَّدَناه
« بروح القُدس » سورة : البقرة

جميع الأنبياء — هود — شعيب — صالح — أدريس — إلياس — جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيَّاهم القرآن ، ورفع مَشاعِلَهُم — عالياً — .

ولكى لا يَدَعَ منهم أحداً دون أن يذكره بحفاوة ، قال بعد أن فصَّل أسماءهم تفصيلا .

«مِنهم من قَصَصْنا عليك، ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك»

وهو من خلال عرض سِيرَهم ، يكشف عن وَحدة الدعوة والدين التى انتظمت جهادَهم جميعاً .

فما من نبيٍّ منهم ولا رسول ، إلا كانت أُولَى كلماته لقومه :

« اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً »

كلهم هتفوا بهذا المبدأ المقدس

كلهم بلا استثناء . . جاءوا لِيُحرِّروا الضمير الإنسانى من عبوديته الهابطة للأوثان والأصنام ، ولِيَصِلوه بالإلهِ الحق ، الذى ليس كَمِثْله شىء .

وهذا هو لُباب الدين وقاعدته . .

يبدأ كل رسول بدعوة الناس إلى الله الواحد الأحد .

وينذر عمره كله لإحقاق هذا الحق ، . ثم عن طريق هذا الإيمان . وبقوته التى تستقر فى نفوس المؤمنين يُواجه كلُّ رسولٍ نقائص قومه وخطاياهم ، فيعظُهم فيها ، وينهاهُم عنها ، ويقدم لأمته الحلول المناسبة لمشاكلها .

أما المضمون الحيُّ لكل كتاب ، وكل دعوة ، فواحد لا يتغير ، هو الإيمان بالله ، والعمل الصالح .

هذا الذى عبَّر عنه القرآن فى إيجاز وشُمول :

« قالوا ربُّنا الله ، ثم استقاموا » سورة : الأحقاف

هذا هو ما يريد أن يضع أساسَه ويُعلى بناءه

هذا هو الجوهَر الذى توالَتْ مواكب المرسلين لِتُنادى

إليه عقـــول الناس وأفئدتهم .

فكيف إذن ، يصير الدين الذى هو أداةُ جَمْع ، لا تشتيت . . وسبيلُ وَحدة ، لا فُرقة . .

كيف يصير ، أو بعبارة أهْدَى ، كيف يُصَيِّره الناس أداةَ مُنابذة وخلاف ؟ ؟ !

إن القرآن يضع جَوهر القضية فى مستوى كل بَصَرٍ رشيد .

وإنه ليدعو البشر إلى صراط مستقيم حين يقول لهم

« أقيموا الدين ، ولا تتَفَرَّقوا فيه »

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ..

مَن شاء أن يرى القرآن ، وهو فى أروع حالات توقُّده ، وتألُّقه ، وتحفُّزه ، وسَناه ، فَلْيَرَهُ ، وهو يتحدث عن وحدانية الله ، وقدرته ، ورحمته .

إن آيات القرآن ، حين تتحدّث عن الله ، لَتبلغُ قِمّةَ الاحتدام الذّكى ، والتفوُّق المنطقى .. وتصولُ الآيات وتجولُ فى ميدان اكتظت أرضه بالأصنام ، والأوثان ، والشُركاء ، والشُبهات ..

وتكاد تسمع للآيات مثل الصّلْصلَة ، وهى تُدَمْدِمُ على الآلهة الزائفة ، والأرباب المجلوبين ..!!

تكاد ترى الآيات الكريمة ، وكأنها تعدُو ، وتقتحم ، وتتواثَبُ ، وتَدْهَمُ ، وتُنذِر . وتُطوّق ، وتُباغِت ، مُتعقبةً أباطيل الشرك وأكاذيبه — فى كل مكان .. فى كل زمان .. فى كل مُناسَبة ..!!

والقرآن العظيم ، حين يتحدث عن الله ، فإنما يتحدث عن

الله الأحد .. فليس الله عنده إلا واحداً أحداً . .

وحيث يُوجد التعدُّد ، لا يكون ثَمَّتَ إلهٌ . .

ذلك لأن الله لا يتعدد ، ولا يتكرَّر ، ولا يتغير . .

« إنما الله إله واحد» سورة : النساء

والقرآن فى هذا لايزعم لنفسه أنه أتى بجديد . بل هو ينادى فى إلحاح : أَنْ تلك دعوةُ إبراهيم ومِلّته .

« إنّ إبراهيم كان أُمّةً ، قانتاً لله حنيفاً ، ولم يَكُ

« من المشركين » سورة : النحل

فإصرار القرآن على وحدانية الله ، ورفضُه كل تعـدُّد فى ذات الله . .

إصرارُه على رفض التشبيه والتمثيل بالنسبة لله الذى ليس كمثله شيء . .

إصراره هذا ، وذاك ، إنما هو توكيد للحنيفيّة الأولى التى جاء بها أبو الأنبياء والمرسلين « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام :

ثم هو توكيد لما هتف به موسى ، وعيسى ، وكل رسول كريم . .

ومن ثمّ ، يُفيض القرآن فى تبيان هذه الحقيقة ويقص علينا تجربة أبى الأنبياء مع حقيقة التوحيد .

* * *

يخبرنا القرآن ، كيف ذهب إبراهيم عليه السلام يبحث عن الله حين أحسّ من تلقاء نفسه أن هذا الوجود لا يمكن أن يخلو من مُدبّر مُقتدر حكيم .

وكان إحساساً رشيدا ، لم يمنعه إيمان الناس جميعهم بالأصنام ، من أن يستجيب للحق الذى كان يُلحّ عليه ليراه .

«ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل ، وكنا به عالمين»

سورة : الأنبياء

رأى إبراهيم أصناما مَشيدَة ، وكواكب معبودة . . .

وأبصر قومه مُوَزّعين — بعضهم جاثٍ أمام صنم يناجيه ، وبعضهم جاثٍ أمام نجم يدعوه .

أما أصنام الأرض التى يبنيها الناس بأيديهم ثم يعبدونها ،

فقد رفضها فى بداهةٍ سريعة . .

ومضى يُقلب وجهه فى السماء ضارعاً إلى الله الحق كى يكشف له الهُـدى ، ويَقْدُرَ له اليقين .

« فلما جَنَّ عليه الليل رَأى كوكبا ، قال : هذا ربى ،
« فلما أفَلَ قال : لا أُحبُّ الآفلين .
« فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفَلَ قال :
« لَئِن لم يهدِنى ربى لأكُونن من القوم الضالين
« فلما رأى الشمس بَازِغَةً قال : هذا ربى ، هذا
« أكبر ، فلمـا أفلَتْ ، قال ياقوم إنى برىءٌ
« مما تُشركون .
« إنى وجَّهتُ وجهىَ للذى فطَر السماواتِ والأرضَ
« حنيفاً ، وما أنا من المشركين »   سورة الأنعام

هكذا يجمعنا القرآن الكريم بأبى الأنبياء « إبراهيم » وهو يطالع الحقيقة بعد طول عَناء ، ويُعلن أن إلاهَه وإلاهَ الناس واحد ، فاطر السماوات والأرض . .

ويُتابع القرآن تجربة أبينا إبراهيم ، فينقل إلينا حواره مع

أبيه ومع قومه حول قضية الإيمان هذه :

« إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تعبدُ مالا يَسْمَعُ ولا

« يُبصر ولا يغني عنك شيئا ؟

« يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتِكَ ، فاتَّبِعْني

« أهْدِكَ صراطاً سَوِياً .

« يا أبتِ لاتعبُدِ الشيطان ، إنَّ الشيطان كان

« لِلرحمن عَصِيّا .

« يا أبَتِ إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن

« فتكونَ للشيطان وليا .

ويجيبه أبوه :

« أراغبٌ أنت عن آلهتي ياإبراهيم ؟

« لَئِن لم تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّك ، واهجُرْني مليا .

ويجيبه إبراهيم :

« قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربي إنه كان

« بي حَفِيّـاً .

« وأعتزِلـكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي

« عسى ألاَّ أكُونَ بدعاء ربي شقيا » سورة : مريم

ويمضى القرآن ، يعرض تجربة إبراهيم مسلطا عليها الأضواء في ألوان شتّى ليظهر كل بهائها وكل دلالتها .

والقرآن إذ يُعنى بهذه التجربة الباهرة ، إنما يَدْعَم حقيقة الإيمان والتوحيد دَعْماً وثيقاً ، ويعطى الناس من رائد هذه الحقيقة ، قدوةً تَجِلُّ عن النظير في ثباتها وصدقها وروعة انتصارها .

لقد احتالَ قومه عليه ليفتنوه عن إيمانه فأخفقوا

ثم لجأوا إلى تخويفه وترويعه بنقمة آلهتهم ، قاصِّين عليه الأساطير تِلْوَ الأساطير ، مُتضمنة غضبَ الآلهة ، الذي حاق بمن كفَرَ ، وعذابَهم الشديد الذي دَمْدَمُوا به على من جحدهم واستنكف عن عبادتهم .

فما كان جوابَ « إبراهيم » إلا صَلْصَلَةً بيقينِه ، وجَلْجَلَةً بإيمانه ، وهُتافا عاليا باسم ربه الأحد الحفيظ ، الكبير المُتعال .

« وحَاجَّهُ قومُه : قال أتحاجُّونِّي في الله وقد هَدَان ؟

« ولا أخاف ما تُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ،

« وَسِعَ ربي كل شيء علماً ، أفلا تتذكرون؟

« وكيف أخاف ما أشركتُم ، ولا تخافُون أنكم

« أشركتم بالله ما لم يُنزِّل به عليكم سلطانا
« فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون ؟
« الذين آمنوا ، ولم يَلبِسُوا إيمانَهم بظلم ، أولئك
« لهم الأمن ، وهم مُهتدون » سورة : الأنعام

ويعرض القرآن مَشهداً آخر ، مَشهد الذى فتنه مُلكه .
وغرّه جاهه ، ولعله كان مَلك « بابل » فأراد أن يفتن الخليل
عن إيمانه .

« ألَمْ ترَ إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه أن آتاه
« الله المُلك . . إذ قال إبراهيم ربِّىَ الذى يحيى
« ويُميت ، قال أنا أحيى وأُميت . .
« قال إبراهيم . فإن الله يأتى بالشمس من المَشرق
« فأتِ بها من المغرب ، فبُهت الذى كفر ، والله
« لا يهدى القوم الظالمين » سورة . البقرة

والقرآن يسوق هذه المحاورة ليُرِينا بها كيف كان
إبراهيم يُفصح عن إيمانه ، بالمنطق — ذلك لأن الإيمان بالله . .
وجودِه ووحدانيتِه ، ليس لُغزاً من الألغاز ، ولا أُحجية

من الأحاجى — إنما هو حقيقة تجد فى العقل وفى المنطق أداة التعبير عن نفسها ، وإقامة الحجة على صدقها .

فعند ما سأل « مَلكُ بابل » نبيّ الله إبراهيم برهاناً ، لم يأته بخارقة من الخوارق ، بل توسَّل بالمنطق فأجابه : برهانى قصة الحياة والعَدم ، فحيثُما تُقَلب بصرك ترى وجوداً شامخاً ونامياً ، وتجد حياة متجددة دائبة . فهذه البيضة التى يخرج منها ديك يصيح ، أوطائر يطير . . ! وقطرات الماء ، التى يتشكلُ منها الإنسان — الذكَرُ والأنثى .

هل أصنامُكم هذه تصنع من ذلك شيئاً ، أو تُحدث منه أمراً ..؟ كلا . . ولكنْ : « ربى الذى يحى ويميت » .

ويجيبه الملك فى سخرية عاجزة :

« أنا أُحيي وأُميت » . . !

ذلك أنه يتصور تحت وطأة صَلَفه وجَبَروته ، أنه حين يدعو — مثلا — رجلين قد حُكم عليهما بالإعدام لجرم اقترفاه ، فيعفو عَن أحدهما ، ثم يُنجز الحكم فى الآخر .

يتصور أنه لو صنع شيئاً كهذا ، يكون قد أمات وأحيا .!!

ولكنّ إبراهيم عليه السلام يبلغ من الفِطنة والهدى ، ما يربأ به عن مُناقشة هذا الخوَاء ، فيتخطّاه فى سُهولة إلى برْهان آخر ، وهو أيضاً برْهان كَوْنى ، يستمد جوهره وشكله من مُعطيات العقل والحسّ ، فيقول :

« فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فَأْتِ بها « من المغرب » .

فى تهكّم قاصف ما حق ، وهو فى نفس الوقت منطق واضح وصادق ، أدْلَى إبراهيم ببُرهانه الثانى .

إن هذه الشمس التى تمضى فى حركة مُقَدّرَة موقُوتة لا تفعل ذلك وحدها . . بل إن لها ربّاً يُمسكها ويهديها ، فَمُرْها أن تقف ، أو غيِّرْ إذا كنت إلها مَدَارَها ، ومَسِيرها ، وحركتها . .

ثم يقول القرآن فى حُبور وتهلُّل :

« فَبُهِتَ الذى كَفَرَ » . . . ! ! !

* * *

وينقلُنا القرآن إلى مشهد أخر ، تتوالى فيه الحجة البالغة

داحضَةً أوهام الشرك وأباطيل المشركين .

« واتلُ عليهم نبأ إبراهيم

« إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟

« قالوا نعبُد أصناماً ، فنظلُّ لها عاكِفين

« قال : هل يسمعونكم إذ تَدْعون ؟

« أو ينفعونكم ، أو يَضرُّون ؟

« قالوا : بل وَجَدْنا آباءنا كذلك يفعَلون

« قال : أفرأيتُم ما كنتم تعبدون ؟

« أنتم وآباؤكُم الأقدمون

« فإنهم عدوٌّ لى ، إلاَّ ربَّ العالمين

« الذى خلقَنى ، فهو يَهدِين

« والذى هو يُطعمنى ، ويَسْقِين

« وإذا مرِضْتُ ، فهو يَشفين

« والذى يُميتُنى ، ثُم يُحيين

« والذى أَطمع أن يغفر لى خطيئتى يومَ الدين »

سورة : الشعراء

إنه يتخذ من مظاهر الخلق دليله الى الخالق ، وهو فى هذا الحوار يُركِّزُ على دَحْض هذه الأصنام وكشف زيفها .

هو يريد أن ينزع من صدور قومه كل إيمان بهـذه الأصنام ، وكل ولاء واحترام لها ، فإذا ماتمّ له ذلك ، وخرج الإيمان بها من القلوب ، وحلّ مكانَه فراغ نظيف ، قدّم هو الإيمان الحق الذى يملؤ هذا الفراغ .

هذه هى الخُطة التى قضى إبراهيم فى انتهاجها عُمرا طويلا ، وان كان القرآن يُجْملها فى مشهد وجيز ، فيرينا ـ أولا ـ نقدَه للأصنام تمهيدا للتشكيك فيها ، وطَرْدِها من قلوب عابديها .

« هل يَسمعونكم إذ تَدْعُون » . . ؟ ؟

« أو ينفعونكم ، أو يَضُرُّون » ..؟؟

فإذا كانوا ، لا يَسمعون ، مجرد سَمْع . . ولا ينطقون مُجرَّدَ نُطق . .

واذا كانوا لا يملـكون لـكم ، بل ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرا . . فبأى منطق وبأى عقل يَخِرُّون لهم سُجَّدا ، ولا تعبدون الله الحق الذى خَلقـكم وما تعملون ، والذى يُطعم

ويَسقى ، ويُميت ويُحيى ، ويهدى ويَشفى . . ؟؟

« ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

« قالوا : وَجَدْنا أباءنا لها عابدين

« قال : لقد كنتُم أنتم وأباؤكم فى ضلالٍ مبين

« قالوا : أجئتَنا بالحق ، أم أنتَ من اللّاعبين ؟ .

« قال : بل ربكم ربُّ السماوات والأرض الذى

« فطرَهُنَّ وأنا على ذَلكُم من الشّاهدين .

« وتَا لله لَأَكيدَنَّ أصْنامَكُم بعد أن تولوا

« مُدْبرين » سورة : الأنبياء

لقد جاءت الساعة الفاصلة حيث ازدحمت نفس إبراهيم بالمقت لهذا الهوان الذى يتمرّغ فيه قومه وهم لا يرعَوُون .

أناسٌ معهم عقولهم ، ومعهم حَواسُّهم ، ثم يحملون القرابين والأطعمة إلى حجارة مَنْحوتَة . .

عجبا . . !! ألا سألوا أنفسهم ، ماذا ستصنع بها الأصنام ؟.

ثم هم يعبدونها ويرجون نفعها ، ويخافون عذابها . . فمتى قدّمت لإنسان نفعا ، أو ألحقت بأحدٍ ضُرّا . . ؟

أيمكن أن يكون هؤلاء الناس فى تقديسهم لهذه الأوثان يَصدُرون عن عقل . . ؟

أبدا . . إنما هم يصدُرُون عن خَوف . .

فإذا رأوا أصنامهم هذه تتحطم وتتهشَّم ، ثم لاتستطيع حتى حماية نفسها ، زالَت عنهم المخـــاوف التى تقودهم إلى عبادتها . .

وهكذا يتخذ إبراهيم قراره .

ويعرض القرآن علينا هذا المشهد فى حَماسٍ وحركة ، حتى لنكادُ نُحِسُّ كأنَّه كان هُناك ، مع إبراهيم . . خطوة خطوة . . وخَلْجةً خلجة . . وهمسةً هَمْسة . . بل كأنه هنـاك يحضُه ويُحرِّضُه ، ويهتف به ويهلل له :

« إذْ جاء ربَّهُ بقلب سليم .

« إذْ قَال لأبيه وقومه ماتعبُدون ؟

« أئِفْــكاً آلِهةً دُونَ الله تُريدون ؟

« فما ظنُّــكُم برب العالمين !

« فنظَر نظرةً فى النجوم ، فقال إنى سقيم .

« فتولَّوْا عنه مُدْبرين .

« فرَاغَ إلى آلهتهم فقال :

« ألاَ تأكلون ..؟!

« مالَكُمْ لاتنطقون ...؟!

« فراغَ عليهم ضَرْباً باليمين .

« فأقبلوا إليه يَزِفُّون .

« قال : أتعبدُونَ ماتَنحِتُون؟!

« والله خلَقكم ، وما تعملون .

« قالوا : ابنُوا لَهُ بُنيانا ، فألقوهُ فى الجحيم .

« فأرادوا به كَيْدا ، فجعلناهم الأَسْفلين .

« وقال : إنى ذاهبٌ إلى ربى سَيَهدين » .

سورة : الصافات

* * *

أجلْ .. « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » .

ويحكى القرآن انتصار سيدنا إبراهيم ، الذى أنجاه الله من محاولات أعدائه ، ثم سار فى الأرض مُهاجِراً ومُذكِّراً،

والقرآن إذ يفيض فى تبيان هذا النبأ ، إنما يعرض كما قلنا قصة الإيمان بالله وبوحدانيته ، فى نقطة بدئها وانطلاقها . . فى فجرها البعيد ، حيث كان ثمّت مؤمن واحد وسط أقوام مشركين وثنيين .

وكأنّ القرآن يطرح هذا السؤال :

— ماذا كان المصير ..؟؟

أما الذين قضوا أيامهم جاثين أمام أوثانهم وأصنامهم ، فقد ذهبوا مع الأوثان بددًا ، وخلّفوا هباء .

أما ذلك المؤمن الواحد ، فقد أخرج الله من صُلبه أنبياء بررة ، حملوا الراية ... وتوارثوا المشعل ..

فكان إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ..

وكان يحيي ، وإشعياء . .

وكان موسى ، وعيسى ، ومحمد . .

وكان هُدًى ملأ الأرض ، ورحمة أدركت الناس . .

هذا هو بطل الإيمان إذن ، ورائد قافلته عبر الزمان الطويل .

هذا هو الذى حيّاه القرآن فى ختام حديثه المُفيض عنه فقال :

« سلامٌ علَى إبراهيم » سورة : الصافات

وهذا هو الأب والمعلمّ الذى لم يزل القرآن دائما يذكر به

رسول الله محمدا ، ويدعوه الى مُتابعته ويناديه دائما .

« أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً ، وما كان

« من المشركِين » سورة : النحل

« قُلْ : إننى هَدانى ربى إلى صِراطٍ مستقيم ، دِيناً

« قِيَماً ، مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً ، وما كان

« من المشركين » .

هذا هو رائد الإيمان الذى كانت حياته ، وكانت دعوته ،

ورسالته : « اعبدوا الله واتقوه » .

لم يتْلُ القرآن قصته للتسلية ، ولكن ليزكّى بها قضية

الوحدانية والإيمان .

من أجل هذا قال وهو يختم أحد مشاهد القصة .

« إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون »

سورة : العنكبوت

وقال : وهو يهدى الناس إلى حقيقة الإيمان وطريقه

« قد كانت لكم أسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إبراهيم

« والذين مَعَه » سورة : الممتحنة

* * *

ومن أجل شرح قضية الإيمان بالله ، ومن أجل شَحْذ الولاء لها والاقتناع بها يحكى القرآن قصة موسى ، إذ ناداه ربه

« إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم

« الصلاةَ لِذِكْرى » سورة : طه

وإذ أمره أن يُواجه « فرعون » بآياته ، مُتسلّحاً بإيمانه ، مُزوّدا بيقينه .

« إذهب أنت وأخوك بآياتى ، ولاَ تَنِيا فى ذِكْرِى

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى

« فقولا له قولا ليِّناً ، لعلّه يتذكّرُ أو يخشى

« قالا : ربَّنَا إننا نخاف أن يفْرُطَ علينا أو أن يطغى

« قال : لا تخافا ، إننى معكما أسمع وأرى » سورة : طه

وعند هذا المشهد يقف القرآن بالمؤمنين به وقفةً ذاكرة ، فالإيمان بالله يُمتحن فى هذا المقام امتحاناً ظافرا .

فالرسول الذى يحمل هذا الإيمان فى قلبه • دون أن يكون معه من وسائل القوة والحوْل سواه ، يُواجه « فرعون » بكل بأسه وقوته .

والرسول • تتحرك فيه طبيعة البشر فيخاف من هذه المواجَهَة ، ويُحاذِرُ عُقباها .

وهو يناجى ربه ، ويَبُثُّه ضَعفه ، وخوفه . . فماذا يملكان ، هو وأخوه من أسباب التوقِّى والنجاة . . ؟

ولكنّ الله يأمره أن يتقدم

أوْ لَسْتَ ، وأخوك مؤمنيْن بى . . ؟

إذن :

« لا تخافا ، إننى معكما أسمع وأرى » سورة : طه

« فاذهبا بآياتنا ، إنّا معكم مستمعون » سورة : الشعراء

ونفس الحِجاج الذى دار بين ابراهيم ومَلِك بابل . . يدور هنا ، بين موسى وفرعون . .

« قال فرعون ، وما ربُّ العالمين . . ؟

« قال : ربُّ السماوات ، والأرض وما بينهما

« إن كنتم مُوقنين

« قال لمن حوله ، ألا تستمعون ؟

« قال : ربكم ، وربُّ آبائكم الأولين

« قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون

« قال : ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما

« إن كنتم تعقلون » سورة : الشعراء

* * *

ويُتابع القرآن مشاهد القصة مَشهداً ، مشهداً ، عارضاً المِحَن التى يتعرض لها الإيمان ، والمُناورات المبهظة التى تقتضيه الصبر الطويل ،والعزم الجليل .

فيعرض ثبات الإيمان فى فؤادِ موسى وهارون حين يُواجهان سُخط فرعون وعذابه . .

ثم ثبات الإيمان فى قلوب السَّحَرَة الذين بدأوا جولتهم مع التوحيد ، قائلين :

« بِعزّةِ فرِعون إنّا لَنحنُ الغالبون» سورة : الشعراء

ثم أتوا على نهايتهاساجدين لله ، كافرين بفرعون، وصائحين

من فرحتهم بالإيمان الذى ألقاه الله على أفئدتهم :

« آمنّا برب العالمين ، ربِّ مُوسى وهارون »

سورة : الشعراء

ثم ثبات الإيمان ، حين جلس موسى وأخوه يتلقيان الكيد من قومهما .. من بنى إسرائيل الذين أنجاهم الله من البلاء المُبين ، فما شكَرُوه ، وما حفظوا الإيمان الذى كان سبب نجاتهم ، ومَوْئِل حياتهم ، بل نكثُوا وضَلّوا ، وذهبوا يمكرون بمنقذهم ورسولهم .

« فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم ،
« قالوا : يا موسى اجعل لنا إلاهاً ، كما لهم آلهة ..
« قال إنكم قوم تجهلون
« إنّ هؤلاء مُتَبّرٌ ما هم فيه ، وباطلٌ
« ما كانوا يعملون
« قال : أغَيْرَ الله أبغيكم إلاهاً ، وهو فضّلكم
« على العالمين » ؟

سورة : الأعراف

« واتّخذَ قومُ موسى مِن بَعده من حُلِيِّهم

« عجلاً جسداً ، له خُوار . ألم يَرَوْا أنه لا يكلمهم

« ولا يهديهم سبيلا ؟ اتّخذوه ، وكانوا ظالمين

« ولما سُقِط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلُّوا ،

« قالوا : لئن لم يَرحمنا ربُّنا ويغفر لنا لنكونَنّ

« من الخاسرين

« ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً ، قال :

« بِئسما خَلَفْتُمونِي من بعدى ، أعجلتم أمرَ ربكم ؟

« وألْقَى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجرُّه اليه ،

« قال ابنَ أمَّ ، إنّ القوم استضعفونى ، وكادوا

« يقتلوننى ، فلا تُشمت بِيَ الأعداء ، ولا تجعلنى

« مع القَوم الظالمين

« قال رب اغفر لى ولأخى ، وأدخِلنا فى رحمتك ،

« وأنت أرحم الراحمين » سورة: الأعراف

ثم يوكد القرآن عظمة الإيمان واستغناءه ، فيردد الآية

التى أعلن بها موسى النبى ، استخفافه بمؤامرات قومه ومكرهم .

« وقال موسى . إن تكفروا أنتم ومَن فى الأرض

« جميعاً ، فإن الله لَغنِىٌّ حميد » سورة : إبراهيم

ثم يُحيِّى القرآنُ الإيمانَ الوثيق فى نضال موسى وهارون ، كما حياه من قبل فى تجربة ابراهيم . فيقول :

« سلام على موسى وهارون »

« إنا كذلك نجزى المحسنين »

« إنهما من عبادنا المؤمنين » سورة : الصافات

* * *

وينتقل القرآن إلى تجربة الإيمان مع المسيح . .

ويجمعنا بهذه التجربة الكبرى من أُولى لحظاتها ، من قبل أن يشهدها المسيح ذاته !!

أجَلَ . . منذ قالت أُمُّه ، وهو لا يزال فى بطن الغيب

« أنَّى يكون لى غلام ، ولم يَمْسَسنِى بَشَر ،

« ولم أكُ بغيا ؟ ؟ قال كذلكِ قال ربُّك هُوَ علىَّ

« هيِّن ، ولنجعله آيَةً للناس ، ورحمَةً منَّا ،

« وكان أمراً مقضياً »

سورة : مريم

فالقرآن يرى فى حياة المسيح كلها من بدايتها إلى مُنتهاها .

بُرهاناً وثيقا من ألمع وأصدق براهين الإيمان بالله .

« إن مَثَل عيسى عند الله ، كمَثَل آدم خلَقَه من

« تُراب ، ثُم قال له كُن ، فيكون »

سورة . آل عمران

« وجَعَلْنا ابن مريم وأُمَّهُ آية ، وآويناها الى رَبوة

« ذاتِ قرارٍ ومَعين » سورة : المؤمنون

كما أنَّ موضوع هذه الحياة ، وهُتافَها العالى ، ومسعاها الدائب ، كان حول الإيمان بالله . .

فبين الذين أسماهم المسيح « الخِراف الضالَّة » وقف يزجر دعاة الكفر والعصيان .

وَوَسْط الذين كانت « روما » تُصَدِّر اليهم عِبادة قيصر ، وقف المسيح يُعلن بكل قوة وعزم ، أنه لا إله إلا الله .

ويتتبَّع القرآن كلماته وعظاته فينقلها إلينا ، مُزكِّياً بها قضية الإيمان .

« .. وجئتكمُ بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون

« إن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم »

سورة : آل عمران

إنها نفس الآيات التي ردّدها ورتّلها من قبلُ إبراهيم ، وموسى ، ورتّل صالح من الأنبياء والمرسلين « الله ربي وربكم »

وحين يرى القرآنُ قضية « الوحدانية » تتعرض للخطر بين أتباع المسيح نفسه، يتقدم حاملاً مسئوليته تِلْقاء عقيدةٍ يرى أنها تحت وطأة الغُلُوّ في التقديس . قد خرجَت عن الطريق .

« يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم ، ولا تقولوا
« على الله إلاَّ الحق ، إنما المسيح عيسى بنُ مريم
« رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم ورُوحٌ مِنه ،
« فآمنوا بالله ورُسُله ، ولا تقولوا ثلاثة . انتهُوا
« خيراً لكم ، إنما الله إلهٌ واحد . سبحانه أن يكون
« له ولد . له ما في السماوات وما في الأرض ، وكفى
« بالله وكيلا » سورة : النساء

والقرآن يعلم أن عقيدة التثليث ، إنما أَزْجَتْها الرغبة المُغالية في تكريم المسيح وتقديسه .

من أجل هذا يقرر أن وضع المسيح في مكانه من الله ، باعتباره رسول الله ، وعبدَه ، وكلِمتَه ، لا ينقُص من قدره شيئا ..

أوَ لَم يكن إبراهيم نفسُه عبداً من عباد الله ورسولا من رُسُله . . ؟

ومُوسَى الذى جاء المسيح ليُكَمِّل ناموسه ، ألم يكن كذلك ، لاغير . . ؟

وهكذا يقول القرآن عن المسيح :

« لَنْ يستنكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله »

سورة : النساء

وينقل القرآن القضية إلى مُستوًى أعلى ، فيناقشها مع المسيح نفسه خلال حِوار دار بين الله والمسيح . أو بتعبير أصح ، خلال دفاع دَرَأَ به المسيح عن نفسه مسئوليته عن عقيدة التثليث .

« وإذْ قال الله ياعيسى بن مريم ، أأنتَ قُلتَ للناس
« اتّخِذُونى وأُمّىَ إلاَهَيْن من دون الله ؟
« قال : سبحانك ، مايكون لى أن أقول ماليس
« لى بحق ، إنْ كُنت قُلتُه فقد علمتَه ، تعلم مافى
« نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنتَ علاّم الغيوب

« ما قلتُ لهم إلاَّ ما أمرتَني به ، أنِ اعبدوا اللهَ ربى
« وربَّكُم ، وكُنتُ عليهم شهيداً مادُمتُ فيهم ،فلما
« توفَّيتَني كُنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم . وأنت على
« كل شيء شهيد .
« إن تُعذِّبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك
« أنتَ العزيز الحكيم .
« قال الله : هذا يومُ ينفعُ الصادقين صِدْقُهم ،
« لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار،خالدين فيهاأبدا
« رضى الله عنهم ورَضُوا عنه ، ذلك الفوزُ العظيم »
سورة : المائدة

إذن ، فالمسيح قد جاء هذه الحياة ليأخذ دوره بين الذين اصطفاهم الله كى يعلنوا أُلُوهته ، ووحدانيته ، ويدْعوا الناس إلى الصراط المستقيم .

« صِراطِ الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض »

والقرآن إذ يُلقى أضواءه على الراية المؤمنة التى رفعها المسيح مُناديا بالله الواحد الأحد ، إنما يفعل ليوكِّد الحقيقة التى

دأبَ على الهُتاف بها ، ألا وهى أنه إنما جاء ليبعث العقيدة الدارسةِ ، التى نادى بهـا إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وجميع المرسلين .

فهذه العقيدة هى الدين — كُلُّ الدين — وقديما أوصى إبراهيم بنيه فقال :

« يا بَنِيَّ إنَّ الله اصطفى لـكم الدين »

سورة : البقرة

وسمَّى التوحيد إسلاماً ، وأسْمَى الدين إسلاما ، فأَنْهَى وصِيته السَّالفة قائلا :

« فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون »

سورة : البقرة

هكذا عرض القرآن قضية الإيمان والتوحيد ، إذ يرفع إبراهيمُ قواعدها ، ولواءها . وإذ يرفعها كذلك إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، ويرفعها موسى وعيسى ، ويرفعها خاتَمُ المرسلين محمد . .

وهو بهذا العرض ، وخِلالَه ، يُذكِّر أهل الـكتاب بهذه

الحقيقة، ويُناقشهم حَولَهَا مُناقشة يرجو أن يُعيد بها إلى عقيدتهم نورَ « إبرهيم » ، ورنينَ صِدقه ، ونَبضَ هُداه . .

* * *

والقرآن يدير هذا الحِوار المجيد حول قضية التوحيد ، مع أهل الكتاب ، بعد أن أداره من قبل ، وعلى نطاق واسع مع المشركين الذين اتخذوا من الأصنام آلهة يُعبدون .

فَبيْن الرّعيلِ الأوّل من آياته ، نزلت تلك الآيات الهاتفة بالإله الواحد الأحد ، والتى فنّدت فى منطقٍ كاسح ، وثَنِيَّةَ قريش ، وأذاقت أصنامها من سُخريتها اللاذعة ، وحِجاجها المُدَمْدِم . . ! !

ولقد وضع القرآن فَوق كاهل محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الأمانة الكبرى منذ بدأ يُخاطبه ويتنزلُ عليه .

« يا أيها المُدّثّر . .
« قُمْ ، فأنْذِر . .
« وربّك ، فكَبِّرْ »

سوره : المدثر

إن القرآن يدعوه إلى أن يهتف باسم الله وحـده . .

« وربَّك فكبِّر » . .

أجل . . « رَبَّك » ، لاأربابَ قريش ولا آلهتها التى نحتوها من الحجارة بأيديهم ، أو نحتها لهم آباؤهم الأقدمون . .

إن كل ولاء ، وطاعة . . إن كل توقير وتقديس ، لن يكون إلا لله ، رَبِّك ، وربِّ هؤلاء الحيارَى التائهين ، ورب الناس جميعا .. فلا تَدْعُ مع الله أحدا .

« واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ، وتَبتَّلْ إليه تَبْتِيلا .

« رَبُّ المَشرِق والمَغـرِب ، لا إله إلا هو ،

« فاتَّخِذْهُ وكيلا » سورة : المزمل

وتتوالَى الآيات فى سرعة الضوء ، وتِبْيانِه . .

وتتملْمَلُ قريش أول الأمر ، وتـكتفى بالسخرية ، تُسَرِّى بها عن نفسها الجَزِعَة ، وتُغالِب بها مخاوفها النامية ، فيذهب نفَرٌ من وجهائها إلى الرسول ويقولون له ! .

— يا محمد ، انْسُبْ لنا ربك . . !

إنهم لا يتصورون إلهـا بغير « أسرة » . . ! وهم يطالبون

الرسول ، مادام قد اتخذ إلاهاً غير آلهتهم ، بأن يدلهم على حسب ربه .. من أبوه ..؟ ، ومن عائلته ..؟!

ويجيبهم القرآن فى هدوء :

« قُل هُوَ اللهُ أَحَد . .

« اللهُ الصَّمَد . .

« لَمْ يَلِدْ ، ولم يُولَدْ . .

« ولَمْ يكُن له كُفُوًا أحَد » سورة : الصمد

ويذهبون ، ثم يعودون بسخرية جديدة ، بَطَلُها هذه المرة « أُبيّ بن خلَف » .

جاء إلى رسول الله عليه السلام ، ممسكا بيده قطعة من عظام باليَة ، وَضعها فى كفه ، ثم أخذ يسْحَقُها بأصابعه ، وَيذْرُوها فى الهواء ، ويقول للرسول :

أتزعُم أن ربك سيبعث هذه مرة أخرى . . ؟ !

ويتقدم القرآن بإجابته السّاخرة ، القاهرة . .

« وضَرَبَ لَنا مَثَلاً ، ونَسِىَ خلْقَه . .

« قال : مَن يُحْيِ العِظام ، وهى رَمِيم . . ؟

« قُل : يُحييها الذى أنشأها أوَّلَ مرة ، وهو بكُل
« خَلْقٍ عليم » سورة : يس

أجَل — إن القوة التى خلقت الإنسان من العَدم ، قادرة على أن تُعيده .

« وهو الذى يبدأ الخلق ، ثم يُعيده ، وهو أهْوَنُ
« عَلَيْه » سورة : الروم

« قال ربك هُوَ عَلَيَّ هَيِّن ، وقد خَلَقْتك من
« قبلُ ولَمْ تكُ شيئاً » سورة : مريم

« ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلاَّ كَنَفْسٍ واحدة »
سورة : لقمان

ثم يضرب لهم مَثَلا ، يجعل الأمر الذى يستنكفون عن تصديقه ، ويستبعدون تحقيقه ، بديَهةً من البَدَائِهِ المُسَلَّمة فيقول متحدثا عن الله سبحانه .

« ومِن آياته أنك ترى الأرضَ خاشعَة ، فإذا أنزَلْنا
« عليها الماء اهتزَّتْ وَرَبَتْ — إن الذى أحياها لَمُحْيِى
« الموتَى إنه على كل شيء قدير » سورة : فصلت

وينمو فى صدر قريش الْحُنق ، والضِّيق . . فيذهب إلى أبى طالب عم النبى وفدٌ من رجالها يتقدمهم أبو جهل بن هشام ، والعاص به وائل ، والأسود بن المطَّلِب ، والأسود بن عبد يغوث .

ويدخلون علَى أبِى طالب ، ويقولون له :

— أنت كبيرنا وسيِّدُنا ، فأَنصِفْنا من ابن أخيك . . مُرْه أن يكفَّ عن شَتْم آلهتنا .

ويُرسل أبو طالب إلى أبن أخيه مَن يدعوه إليه . .

ويجيء الرسول ، ويَسمع مقالة قريش لعمه ، فيقول لأعضاء وفدها هؤلاء :

— أرأيتم لو دعوتكم إلى كلمة هى خير لكم مِمَّا تجمعون . . ؟

ويقول أبو جهل · هاتِها . .

ويقول الرسول :

— تقولون : لا إله إلا الله . . .

وتفزع رجالات قريش ، ويعلو عُوَاؤها ، ويقولون :

« سَاحرٌ ، كَذَّاب . .

« أجَعلَ الآلهة إلَاهاً واحدا . .

« إنَّ هذا لَشيءٌ عُجاب » سورة : ص

ثم يخاطب الرسول قائلا :

« قُل إنَّما أنا مُنذر . .

« وما مِن إلهٍ إلا اللهُ الواحدُ القهّار . .

« رَبُّ السماواتِ والأرضِ ، وما بينهما ،

« العزيزُ الغفّار » سورة : ص

ويخوض القرآن معركة التوحيد مع أولئك المشركين ، ومع كل مُشرِكٍ كان أو سيكون .

يخوضُها فى غير هوادة ، مُنتَضِياً حُجَّتَه البالغة . . مُمتَشِقاً مَنطقَه الذكى .

« يا أيها الناس ، ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا له . .

« إن الذين تَدعُون من دُون الله ، لن يَخلُقُوا ذُباباً

« ولو اجتَمَعُوا له . .

« وإنْ يَسلُبهمُ الذبابُ شيئاً لا يستَنقِذُوه منه ،

« ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطلُوب » سورة : الحج

ثم يُدمدِمُ عليهم بآياته الدّاحِضه :

« قُلِ ادْعُوا الَّذِين زَعَمْتُم من دُون الله ،
« لايملكون مِثْقَال ذَرَّة فى السماوات . ولا فى
« الأرض . . » سورة : سبأ

« إن تَدْعُوهُم ، لايَسمعوا دُعاءَكُم ،
« ولو سَمِعُوا ، ما استَجابُوا لكم ،
« ويومَ القيامة يَكفُرون بِشِركِكُم ،
« ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير » سورة : فاطر

« واتَّخَذُوا مِن دُون الله آلِهَةً ، لِيكُونوا
« لهم عِزًّا
« كلاَّ ، سيكفُرون بعبادَتِهم ، ويكونون
« عَلَيْهِم ضِدّا .. » سورة : مريم

« واتَّخَذُوا من دُونِه آلِهَةً ، لا يَخلُقون شيئا ،
« وهُم يُخلقون . .
« ولا يَملكون لأنفُسهم ضَرًّا ، ولا نفعا ، ولا
« يملكون مَوتاً ، ولا حَياةً ، ولا نُشورا »
سورة : الفرقان

« أيُشرِكون مالا يَخلُق شيئا ، وهُم يُخلقون؟ ؟

« ولا يَستطيعون لهم نَصراً ، ولا أنفُسَهم ينصرون»

سورة : الأعراف

وفى ختام الملحمة الحافلة يخاطبُ القرآن رسول الله ، مُثَبِّتاً فُؤَادَهُ على ما معه من عقيدة وإيمان ..

« قل : هذه سَبيلى ، أَدْعُوا إلى الله ،

« على بَصيرةٍ أنا . ومن اتّبعَنى . .

«وسُبحانَ الله وما أنا من المشرِكين» سورة : يوسف

* * *

من خِلال هذا الحوار الدّءوب ، مع المشركين تارة ، ومع أهل الكتاب تارة أُخرى .. كان القرآن يشرح للناس حقيقة « الله » ..

كان يقود الوُجْدان البَشْرى ، والعقل الإنسانى إلى الله الحق ، فى آيات مُيَسّرة واضحة ، وفى منطق جَزل مُبين .

وكان سبيله لهذا ، إعمال العقل ، وتحريك قُوَى النظر والتأمل والاقتناع .

فالأحاجى ، والألغاز ، والأساطير ، لا تدل على الله ؛ لأن الله « هو الحقُّ المبين » .

والحق المبين إنما يُسار إليه فى هُدى العقل البصير والرُّؤى الرشيدة .

« أفلا تتفكرون » . . ؟ سورة: الأنعام

« أفلا تعقلون » . . ؟ سورة : المؤمنين

« أفلاتتذكرون » . . ؟ سورة : السجدة

« أوَ لم يتفكرُوا فى أنفُسهم » . . ؟
سورة : الروم

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بَدَأَ الخلْق »
سورة : العنكبوت

« إنَّ فى ذلك لآياتٍ للعالِمين » سورة : الروم

« . . . لآياتٍ لقوم يعقلون » سورة : النحل

« . . . لآياتٍ لقوم يتفكرون » سورة : الروم

فالقرآن يُقَدِّم « الله » إلى عباده فى موكب حافلٍ من آيات قدرته ، ورحمته ، وعظمته .

فمن هو الله . . ؟

إن القرآن لا يحدثنا عن لونه ، ولا عن حجمه ، ولا عن شخصه ، لأن الله أعلى وأجلّ من أن يعرف بهذه الأعراض .

« الله نورُ السماوات والأرض » سورة : النور

« ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير »
سورة : الشورى

وإذا أردنا أن نعرفه ، فلندر أبصارنا فى الآفاق وفى أنفسنا ، فهنالك وهنا نرى من آياته الكبرى ما يدلنا عليه

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها »
سورة : الرعد

« وهو الذى مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسى
« وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين
« اثنين ، يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات
« لقوم يتفكرون
« وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات
« من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير
« صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها

« عَلَى بَعضٍ فى الأُكُـل . إن فى ذلك

« لآياتٍ لِقوم يعقلون » سورة : الرعد

« وسَخَّر الشمس والقَمر . كُـلٌّ يَجـرى

« لِأَجل مُسمّى » سورة : الرعد

« وسَخَّرَ لـكُم الشمسَ والقمر دَائِبَيْن ، وسَخَّر

« لـكم الليلَ والنهار » سورة . إبراهيم

« . . . والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بأمره . إنَّ فى ذلك

« لآياتٍ لِقومٍ يعقلون

« وما ذَرأَ لـكُم فى الأرض مختلفاً ألْوانُه ،

« إن فى ذلك لآيةً لقـوم يَذَّكَّرون »

سوره . النحل

« واللهُ خلقَ كُـلَّ دَابةٍ من ماء ، فمنهم مَن يمشى

« على بطنه ، ومنهم مَن يمشى على رِجْلَيْن ، ومنهم

« مَن يمشى على أربع . يَخْلُق الله ما يشاء ،

« إن الله علَى كل شيء قدير » سورة : النور

« واللهُ أنبَتَـكُم من الأرض نَبـاتـاً »

سورة . نوح

« ومِن آياته أن خَلقَكُم مِن تُراب ، ثم إذا أنتم
« بَشَرٌ تَنتشِرُون » سورة: الروم

« ومِن آياته أنْ تَقُومَ السماء والأرضُ بِأمره »
سورة . الروم

« يُمسِكُ السّماوات والأرضَ أنْ تَزُولاَ »
سوره : فاطر

« تبارَكَ الذى جعَل فى السماء بُروجاً ، وجعَل فيها
« سراجاً ، وقمراً مُنيراً » سورة : الفرقان

« والشمسُ تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير
« العزيز العليم
« والقَمَرَ قدَّرْناهُ مَنازِل حتى عاد كالعُرجون القديم
« لا الشمسُ يَنبغى لَها أنْ تُدْرِكَ القَمر ،
« ولا اللّيلُ سابقُ النَّهار ، وكُلٌّ فى
« فَلَكٍ يَسبَحُون » سورة : يس

« والأرضَ مَدَدْناها ، وألْقَيْنا فيها رَواسِيَ ،
« وأنْبَتْنا فيها من كُلِ شيء مَوزُون »
سورة : الحجر

« أَمْ مَنْ جَعَلَ الأرض قَرارا ، وجَعَل خِلالَهَا
« أنهارا ، وجَعَل لهَا رواسِيَ ، وجَعَل بين البَحْرين
« حاجزاً ؟ أإلهٌ مع الله ؟ ، بل أ كثرُهم لا يعلمون »
سورة : النحل

« وترى الجبال تحسَبُها جامدةً ، وهى تمرُّ مَرَّ
السحاب ، صُنْعَ الله الذى أتقَنَ كُلَ شىء »
سورة : النحل

« إن فى خَلْق السماوات والأرض ، واختِلافِ اللّيل
والنهار ، لآياتٍ لأُولى الألْبَاب » سورة : البقرة
« ألَمْ تَرَ أن الله يوُلِجُ الليلَ فى النهار ، ويوُلِجُ
النهارَ فى الليل . . . . ؟؟ » سورة : لقمان

« يُكَوِّرُ اللّيْلَ علَى النهار ، ويُكوِّرُ النهارَ
على الليل » سورة : الزمر

« يُغْشِى اللّيلَ النهارَ ، يَطلبُه حَثيثاً » سورةالأعراف

« أنزَل من السَّماء ماء ، فسَلَكَهُ يَنابيعَ فى الأرض »
سورة : الزمر

« وأنزلنا من الْمُعْصِرَات ماءً ثَجَّاجا ، لِنُخرج به

« حَبًّا ونباتًا وجنَّاتٍ أَلْفافا » سورة : النبأ

* * *

من خلال النظر فى هذه الآيات الكبرى ، يُريد القرآن أن يصلَ الناسَ بِربهم ، وأن يتعرفوا إليه بتأمُّلهم وتفكيرهم

فالله ، هو القويُّ المقتدر ، والخلاَّقُ العظيم . . وهو من وراء كل هذا الكون المديد البعيد ، الرحيب العجيب . .

هو مِن ورائه بقوته وقدرته وإبداعه ، وهو مِن ورائه مُحيط .

مَن شاء أن يراه ، فهاهوذا . . فى كل آثارِ رَحمته ، وقدرته .

فى النَّبْتَة الطالعة . .

فى القَطرة الهَاطلة . .

فى الشُّعاعة الحافلة . .

فى مَواقِع النجُوم .

فى الليل إذا يغشَى . .

والنَهار إذا تجلىَّ .

فى الشمس تَجرى لمستقرٍّ لها . .

وفى الأرض تمرُّ مرَّ السَّحاب ..

فى كُل ما خَلَق الله من شىء .. نستطيع أن نرى الله نُورَ السماوات والأرض وبارِئَهُنَّ العظيم .. !!

فإذا أردنا أن نعرف طرَفاً من صِفاته .. فالقرآن لايبخل علينا بما نُريد .

« هُوَ أهْلُ التقوى ، وأهلُ المغفِرَة »

سورة : المدثر

« عالِمُ الغَيْب والشَّهادَة ، العزيزُ الرحيم »

سورة : السجدة

« لا يُخلِفُ الميعاد » سورة : آل عمران

« ولَن تَجِد لِسُنَّة الله تبديلا » سورة : الفتح

« وهو الغفور الوَدود » سورة : البروج

« خيرُ الماكِرين » سورة : آل عمران

« البَرُّ الرحيم » سورة : الطور

« لا يُحب الظالمين » سورة : آل عمران

« يَقْضى بالحق » سورة : المؤمنون

« سريع الحساب » سورة : إبراهيم

« شديد العقاب » سورة : البقرة

« كتب على نفسه الرَّحمة » سورة : الأنعام

« وهو العزيز الحكيم » سورة : فاطر

« وهو الولىُّ الحميد » سورة : الشورى

« ذى الطَّوْل ، لا إله إلا هو ، إليه المصير »

سورة : المؤمن

« وَمن أَصْدَقُ من الله قِيلا » ؟ سورة . النساء

« وهو الحكيم الخبير » سورة : سبأ

« الكبير المتَعال » سورة : الرعد

« وهو الفتاح العليم » سورة . سبأ

« عليمٌ بذاتِ الصُّدُور » سوره . فاطر

« لاتأخذُه سِنَة ولا نَوْم » سورة . البقرة

« وَسِعَ كُرْسِيُّه السماوات والأرض »

سورة : البقرة

وأخيراً . .

« هُو الذى يُصَلِّ عليكمُ ومَلائكَتُه لِيُخرجكم

« مِن الظُّلمات إلىَ النور ، وكان بالمؤمنين رحيما »

سورة : الاحزاب

« فَذالـكُمُ الله رَبُّـكُمُ الحَقّ ، فماذا بعـدَ الحق

إلا الضّـلال ، فأَنىّ تُصْرفُون » ؟؟!!!

سورة : يونس

* * *

على هذا النّحو ، توفر القرآن على قضية الإيمان والتوحيد ،

كما لم يتوفّر على قضية أخرى سواها .

وما كان بوُسْعه ألاَّ يفعل .

فلقد جاء القرآن — يوم جاء — إلى دنيا مُثقلَة بآلهـة

كاذبة من أصنام الحجَر .. وأصْنام البشَرَ . .

والفطرة الإنسانية يومئذ ، كانت تجتاز فى كل الأرض ؛

لا فى مكة وحدها ، مِحْنةً عاتية مُظْلمة .

والقرآن الذى يعى تماماً مسئوليته عن هذه الفطرة كان

لا بد له من أن يردّها إلى جوهرها .

وسبيل ذلك أن يردَّها إلى الإله الحق ، ويحررها من كل خضوع ، ورُضُوخ .

من أجل ذلك ، ذهب القرآن الكريم يبُثُّ فى أفئدة الناس يقيناً كاملا بأن الله وحده الرحيم الودود ، هو بارئُهم وإلاههم . . ومنه وحده يستمدُّ الضميرُ الإنسانى سيادته وكيانه .

ويريد القرآن بهذا أن يحرر الناس من كل عبودية زائفة ، يفرضها عليهم الأقوياء بأموالهم ... أو بسلطانهم .. أو بما معهم من جاه وصَلَف . .

فقضية الإيمان بالله الواحد الأحد ، ليست مجرد شعار دينى يرفعه القرآن ، بل هو يراها كُبْرَى الحقائق التى إذا خرجت الحياة الإنسانية عن فَلَكِها السيّار ، وتبددت تلاشت .

وحين نتلو الآيات التى زكى بها القرآن قضية التوحيد هذه ، نلمح فى يُسْرٍ الغرضَ الإنسانى الذى

ترفعنا إليه هذه الآيات ، ألا وهو تحطيم الأغلال التى ترسف فيها إرادة الإنسان ، وفتح طريق التطور والنمو أمام حرية الضمير .

مطبعة مخيمر : ت ٤٧١٩٣

للمؤلف

يطلب فى الجمهورية العراقية من

مكتبة المثنى — بغداد

الثمن ١٢ ص

مطبعة مخيمر

٩٩ شارع الجيش تليفون ٩٣٠٣٩٣